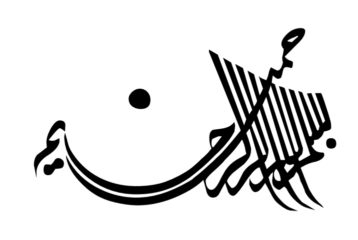
إشكالية النهضة
بين الفكر القومي العربي
والصحوة الإسلامية

الطبعة الأولى
1423هـ - 2002م

دراسات في قضايا الأمة (2)

إشكالية النهضة
بين الفكر القومي العربي
والصحوة الإسلامية

غازي التوبة



المقدمة

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضِلّ له، ومن يُضْلِل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، ﴿**يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ ولا تَموتُنَّ إلا وأنتم مُسْلِمونَ**﴾، ﴿**يا أيّها الناسُ اتّقوا ربَّكُم الذي خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ واحِدَةٍ وخلق منها زَوْجها وبَثَّ منهُما رجالاً كثيراً ونِساءً واتّقوا اللهَ الذي تَساءَلونَ بهِ والأرحامَ إنّ اللهَ كان عليكُم رقيباً**﴾، ﴿**يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا اللهَ وقولوا قَوْلاً سديداً يُصْلِحْ لكم أعمالَكُم ويغفرْ لكُم ذُنوبَكُم ومَن يُطِعِ اللهَ ورسولَهُ فقد فازَ فَوْزاً عظيماً**﴾ أما بعد: فإنّ أصدق الحديث كلام الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشرّ الأمور مُحْدَثاتها، وكل مُحْدَثة بِدعة، وكل بِدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

طرح شكيب أرسلان في مطلع القرن العشرين سؤالاً: لماذا تأخرنا وتقدم غيرنا؟ وهو سؤال جوهري أجاب عليه في رسالة

كتبها، وأجاب غيره عن السؤال نفسه، وبغض النظر عن قيمة الأجوبة، ففي تقديري يجب أن يتغير السؤال بعد مرور ما يقرب من قرن على سؤال شكيب أرسلان ليصبح: لماذا لم ننهض؟ لا شك أن السؤال بهذه الصورة يقرر حقيقة جديدة هي أننا لم ننهض، وهو أمر متفق عليه بين جميع الفئات من إسلامية وقومية وليبرالية إلخ...

وفي محاولتي للإجابة على ذلك السؤال تفحصت دور ايديولوجيا القومية العربية، ودور القيادات القومية العربية في مسيرة الأمة منذ مطلع القرن العشرين، وذلك لأن ايديولوجيا القومية العربية هي التي حكمت معظم الدول العربية، لذلك فإن أي تمحيص لعدم تحقق حلم الأمة في النهضة يجب أن يتفحص دور تلك الايديولوجيا لأنها هي التي نفذت رؤيتها وتصوراتها وأفكارها وتخطيطاتها إلخ...

ومن الجدير بالملاحظة أن القيادات القومية العربية في كل مراحلها، لم تعتبر الدين الإسلامي عاملاً أساسياً في بناء الأمة، وهذا ما جعلها تتوجه إلى تغريب الأمة حسب النموذج الأوروبي،

لكن الأمة رفضت هذا التغريب، وحدثت معركة طاحنة أثناء الرفض، وكلفتها الكثير من الخسائر على المستوى الثقافي والاجتماعي والسياسي إلخ... وانبثقت الصحوة الإسلامية في نهاية تلك المعركة، لكن الصحوة الإسلامية – أيضاً – لم تنقل الأمة نقلة نوعية نتيجة القصور في منهجيتها ورؤيتها.

لقد تغيرت الصورة بعد سقوط الشيوعية وتفكك الاتحاد السوفييتي عام 1991م وبروز العولمة، فأصبحت الصحوة الإسلامية مهددة، ليس هذا فحسب بل الأمة مهددة في جوانب من ثوابتها وشخصيتها وهويتها وعوامل وجودها.

قد ناقشت كل ذلك، لذلك قسّمت كتابي إلى أربعة فصول، كانت حسب الترتيب الآتي:

الفصل الأول: ايديولوجيا القومية العربية: الفشل في تحقيق النهضة وظروف النشأة.

عرضت في بداية الفصل كيفية تعميم ايديولوجيا القومية العربية في مختلف الأقطار العربية، ثم فصّلت في فشل ايديولوجيا

القومية العربية في تحقيق أهداف النهضة، ثم تساءلت في فقرة تالية: لماذا انفصل العرب عن الأتراك؟ ثم قارنت بين مفهوم "العروبة" في التراث وعند القوميين العرب وأبرزت كيفية تحويلهم مفهوم "العروبة" إلى ايديولوجيا، وملئه بمضامين جديدة مخالفة لما كان عليها في التراث، ثم تساءلت كيف نظر القوميون العرب إلى العصور المتأخرة من تاريخنا بخاصة عصري المماليك والعثمانيين، وذلك لأن النظرة الخاطئة ستؤدي إلى حلول خاطئة، وبيّنت في هذه الفقرة أنهم اعتبروا هذين العصرين عصري انحطاط وعصري استبداد لأن القيادات فيهما غير عربية، وناقشت قولهما ذلك، وبيّنت خطأ تحقيب تاريخ أمتنا إلى عصور نشأة وترجمة وازدهار وانحطاط، ونقلت مناقشة الدكتور جورج صليبا لتلك المقولة وأدلته على أخطائها، ثم ناقشت مقولتهم في أن تاريخ أمتنا تاريخ استبداد، وبيّنت أن وجود القرآن الكريم كدستور يحدّد الحقوق والواجبات للحاكم يلغي أصلاً من أصول الاستبداد، وبيّنت وجود عدد كبير من الوسائط بين الحاكم والمحكومين في تاريخنا الإسلامي تعطي فسحة من الحرية والأمان للمحكومين.

الفصل الثاني: ايديولوجيا القومية العربية: تحليل المضمون.

شرحت في بداية هذا الفصل النظريات التي تعلّل نشأة القوميات في أوروبا، ثم انتقلت إلى تحليل مضمون ايديولوجيا القومية العربية عند ساطع الحصري، ثم بيّنت آراءه في العلاقة بين الأديان والأمم بشكل عام والدين الإسلامي بشكل خاص، ثم وضحت أن ايديولوجيا القومية العربية التي طرحها ساطع الحصري والتي تقول بأن الأمة تقوم على عاملي اللغة والتاريخ لا تستطيع أن تعلّل لنا كيفية وجود الوحدة الثقافية، والوحدة النفسية، ووحدة العادات والتقاليد، ووحدة العواطف والمشاعر والآلام والآمال، ووحدة الأجناس إلخ...، ثم بيّنت في الفقرة التالية دور القرآن الكريم والسنة المشرفة في بناء الأمة الإسلامية، فوضّحت دورهما في بناء الوحدة الثقافية، ووحدة الأجناس والأعراق والقبائل، ووحدة العواطف والتكوين النفسي المشترك إلخ...

الفصل الثالث: الصحوة الإسلامية: مظاهرها، أسبابها، محدودية فاعليتها.

جاءت الصحوة الإسلامية ردة فعل على محاولة الايديولوجيا القومية تغريب الأمة، فبيّنت في هذا الفصل مظاهر الصحوة الإسلامية، وبيّنت كل ما يقال ويكتب عن أسبابها، ثم رجّحت أنها تعبير عن الوحدة الثقافية في هذه الأمة، ثم وضّحت في الفقرة الأخيرة من هذا الفصل أنها لم تنقل الأمة نقلة نوعية، وحدّدت أسباب ذلك.

الفصل الرابع: الأخطار التي تهدد الصحوة والأمة الإسلاميتين.

بيّنت في هذا الفصل الأخطار التي تهدد الصحوة والأمة الإسلاميتين فكانت ثلاثة أخطار:

الأول: القطرية: وقد مر هذا الخطر بمرحلتين:

الأولى: تقسيم الأمة المسلمة إلى أمتين: أمة عربية وأمة تركية.

الثانية: التأسيس الثقافي لكل قطر على حدة.

الثاني: اسرائيل: بيّنت فيه تطورات قيام اسرائيل، ثم عرضت لمخاطرها على المنطقة.

الثالث: العولمة: شرحت في هذه الفقرة معنى العولمة، وأخطارها، وأبرز هذه الأخطار: نسبية الحقيقة ثم عرضت لمسألة نسبية الحقيقة عند عدد من الكتاب: طه حسين، حسين أحمد أمين، نصر حامد أبو زيد، محمد شحرور، ثم أنهيت هذا الفصل بالجواب على سؤال هو: كيف يمكن أن نوفّق بين نصوص ثابتة ووقائع متغيرة؟

وفي النهاية آمل أن أكون قد وفقت في توضيح العوامل التي أدت إلى عدم نهوضنا، كما آمل أن أكون قد وفقت في تسليط الأضواء على أهم الأخطار التي تتهدد أمتنا في الوقت الحاضر، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



ايديولوجيا القومية العربية [1]:
الفشل في تحقيق النهضة وظروف النشأة

---

(1) فضّلت استخدام كلمة "ايديولوجيا" في وصف القومية العربية في كثير من المواضع على غيرها من الكلمات ككلمة: فكر، أو مبدأ، أو مذهب، لعدة أسباب:

أ- إنها أكثر صدقاً في التعبير عن التغيير الجذري الذي استهدفته التيارات القومية العربية لواقع الأمة الديني، فهي أرادت إقامة رابطة الإخاء القومي العربي بين أفراد المجتمع بدلاً من رابطة الإخاء الديني التي كانت قائمة في الخلافة العثمانية، وأرادت إشاعة الولاء للقومية العربية بدلاً من الولاء للعقيدة الدينية، وأرادت إقرار القومية العربية مقياساً للصواب والخطأ بدلاً من مقاييس الدين الإسلامي إلخ...

ب- إنها أكثر دقة في التعبير عن التغيير الشامل الذي استهدفته التيارات القومية العربية لمختلف المجالات الاجتماعية والاقتصادية والتشريعية والتربوية والأسرية إلخ...

ج- إنها أكثر صدقاً في وصف حال القيادات القومية الذين جاءوا بحماس أصحاب العقائد، وأحلامهم العريضة عند استهدافهم تغيير الواقع في مطلع القرن العشرين.

تعميم ايديولوجيا القومية العربية

خاضت الخلافة العثمانية الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا عام 1914م، وانفصل العرب عن الأتراك عقب الثورة العربية الكبرى عام 1916م، وتقسمت المنطقة العربية إلى عدة دول حسب اتفاق سايكس-بيكو، وهي: العراق، وسورية، لبنان، الأردن، وحكمت هذه الدول المنشأة حديثاً قيادات قومية عربية ذات ايديولوجيا قومية عربية، وأتاح لها ذلك الحكم أن تطبق رؤيتها للنهضة بين الحربين العالميتين في مختلف المجالات: الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والتشريعية، والتربوية، إلخ...

وكانت مصر بين الحربين العالميتين تدين بالقومية المصرية بعد ثورة عام 1919م التي قادها سعد زغلول، لكن الانقلاب الذي قاده جمال عبد الناصر في مصر عام 1952م نقل مصر من إطار ايديولوجيا القومية المصرية إلى نطاق ايديولوجيا القومية العربية، واستطاعت مصر بقيادة جمال عبدالناصر أن تؤثر في معظم الدول العربية وتجعلها تحمل ايديولوجيا القومية العربية، فقامت الوحدة بين مصر وسورية عام 1958م تطبيقاً للمبدأ الوحدوي في ايديولوجيا

القوميـة العربيـة، ثم وقـع انقـلاب عبـدالله السـلاّل في اليـمن عـام 1961م ونقـل اليمن مـن الإمامـة الدينيـة إلى ايـديولوجيا القوميـة العربيـة وتلقـى دعمـاً مباشـراً مـن مصـر، فأرسـل جمـال عبدالناصـر جيوشاً إلى اليمن لمقاتلة القبائل المخالفة التي كانـت تـدعم الإمـام السابق، وكذلك انتقلت الجزائر بعد الاستقلال عام 1962م من الاستعمار إلى ايديولوجيا القومية العربية بقيادة أحمد بن بلّة وهواري بومـدين، وانتقلـت العـراق وسـورية بعـد انقـلابي عـام 1963م إلى شـق آخـر مـن ايـديولوجيا القوميـة العربيـة وهـي ايـديولوجيا القوميـة البعثيـة، وتحولـت ليبيـا والسـودان إلى ايـديولوجيا القوميـة العربيـة الناصـرية بعـد انقـلابي معمـر القـذافي وجعفـر النمـيري في عـام 1969م، وكذلك تحولت الصومال إلى ايديولوجيا القومية العربية الاشتراكية بعد انقـلاب زيـاد بـري فيهـا إلخ... أمـا البلـدان العربيـة الأخـرى الـتي لم تسـد فيهـا الايـديولوجيا القوميـة العربيـة بشـكل مباشر، فقد تناغمت مع تلك الأفكار وأخذت بنصيب وافر منها.

سادت ايديولوجيا القومية العربية معظم البلدان العربية إن لم يكن كلها خلال العقود الستة الأولى من القرن العشرين، وأخذت

تلك الايديولوجيا طريقها إلى التطبيق في مختلف المجالات: السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والتربوية، والإعلامية، والفكرية إلخ... واستهدفت ايديولوجيا القومية العربية تحقيق النهضة، واستهدفت من أجل ذلك أموراً متعددة، منها: إقامة الوحدة بين الأقطار العربية، وإيجاد رابطة جديدة تجمع بين أبناء العروبة، وتحقيق مجتمع حديث، ومنع إسرائيل من القيام ومن التوسع، وإقامة مجتمع مستقل ومزدهر اقتصادياً إلخ... فماذا تحقق من هذه الأهداف؟ لم تحقق ايديولوجيا القومية العربية شيئاً من تلك الأهداف، بل فشلت فشلاً ذريعاً في تحقيقها، لنستعرض جانباً من ذلك الفشل في الصفحات التالية.

فشل ايديولوجيا القومية العربية في تحقيق أهداف النهضة [1]

1- الفشل في إقامة الوحدة:

استهدفت الايديولوجيا القومية إقامة رابطة جديدة بين أبناء المجتمع العربي تقوم فيه العلاقة بين الأفراد على أساس الإخاء القومي بدلاً من الإخاء الديني، فهل نجحت في ذلك؟

لا لم تستطع بدليل أنه لم تتمكن من أن تحقق وحدة بين أي قطرين على أساس قومي، بل نجد أن الحزب الواحد حكم بلدين متجاورين لكنه قامت بينهما عداوات لم يشهدها تاريخهما في أية

(1) لا يستطيع باحث أن يتجاهل دور القوى الاستعمارية في إعاقة نهضة أمتنا، لكنني لا أعتقد أنه العامل الوحيد في عدم قيام هذه النهضة، فصواب المنهج هو العامل الأهم في قيام النهضة، ومما يؤكد ذلك أن الدعم الخارجي قد توفّر لدعم نهضة قطرين عربيين مهمين بعد الحرب العالمية الأولى، هما: العراق ومصر، لكن النهضة لم تحدث، وذلك بسبب عدم صوابيّة ايديولوجيا القومية العربية في حالة العراق من جهة، وعدم صوابيّة ايديولوجيا القومية المصرية الفرعونية في حالة مصر من جهة ثانية.

مرحلة من المراحل السابقة، كما حدث بين سورية والعراق. ويدل على ذلك أيضاً أن مصر التي قادها جمال عبد الناصر في الخمسينات والستينات ودعا فيها إلى القومية العربية طوال سنوات حكمه، وأقام الوحدة بين مصر وسورية وسمى دولة الوحدة "الجمهورية العربية المتحدة" ونسخ القول بالاقليمية المصرية الذي كان رائجاً، لكنها عادت إلى الاقليمية المصرية في عهد السادات بصورة سهلة دون أن تحدث ردة فعل معينة مما يدل على عدم تغلغل الأفكار القومية العربية وعدم رسوخها في كيان الشعب المصري.

وقد أدى فشل الايديولوجيا القومية في إقامة الوحدة وفي إقامة رابطة تقوم على الإخاء القومي إلى بروز الرابطة القطرية وترسّخها في معظم الدول العربية، وإلى بروز الروابط العرقية من أمثال: الكردية، والبربرية، والآشورية إلخ...

2- الفشل في منع قيام اسرائيل وفي منع توسعها:

برزت الأطماع الصهيونية في فلسطين منذ نهاية القرن التاسع عشر، وفاوض هرتزل السلطان عبد الحميد من أجل إباحة

الهجرة إلى فلسطين، ولكن الخلافة العثمانية رفضت ذلك، ثم أعطت انكلترا وعد بلفور عام 1917م للحركة الصهيونية، وانتدبت عصبة الأمم انكلترا على فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى، ومثّل الصراع العربي – الصهيوني أبرز تحد للايديولوجيا القومية التي قادت المنطقة بعد الحرب العالمية الأولى، ومثّل قيام اسرائيل عام 1948م أبرز فشل للفكر القومي العربي في مواجهة التحديات الصهيونية خلال النصف الأول للقرن العشرين، لأن دول العراق والأردن وسورية كانت تحمل الايديولوجية القومية العربية بشكل واضح، لكن الكارثة الأكبر كانت عندما توسّعت اسرائيل بعد حرب عام 1967م، واحتلت كلاً من الجولان من دولة سورية، والضفة الغربية من المملكة الأردنية، وسيناء من الدولة المصرية، وعندما وقعت النكسة كما سمّاها عبد الناصر كانت الايديولوجية القومية العربية قد حكمت معظم الدول العربية بعد الاستقلال من مثل الجزائر وليبيا والسودان واليمن بالإضافة إلى العراق وسورية إلخ... وقد أثبتت هذه النكسة فشل الايديولوجيا القومية وقياداتها في بناء الأمة في مواجهة اسرائيل وعدم أهليته

لتحقيق النصر عليها، لأنه لم يحسن التعامل مع عناصر حياة الأمة ووجودها، وعناصر القوة فيها.

3- تهديم الوحدة الثقافية وتمزيقها:

يعتبر عامل الوحدة الثقافية من أكثر عوامل تكوين الأمة تعبيراً عن وجودها وشخصيتها، وكان يفترض في الايديولوجية القومية العربي أن تساهم في تعضيده وتقويته، لكنها على العكس من ذلك ساهمت في تعريته وإضعافه بشكل لم يسبق له مثيل، فقد نظرت الايديولوجية القومية إلى الدين الإسلامي كما نظر الغرب إلى الدين المسيحي، فاعتبره عاملاً معوّقاً، وأنه يجب حصره في المسجد، وأنه سبب تأخرنا، وأنه يتعارض مع العلم، وأنه لا يكون هناك تقدم إلا بإقصاء الدين، وازداد الموقف عداء للدين في المرحلة التي تزاوجت فيها الايديولوجية القومية مع الاشتراكية الماركسية، لذلك نجد بأن الساحة امتلأت بدراسات تشكك في الله -سبحانه وتعالى- ، وفي الرسول ﷺ، والملائكة، والوحي إلخ... وتستهزئ بكل الغيبيات، وتعتبرها من الخرافات، وتدعو إلى تبني المادية الجدلية في التعامل مع كل شؤون الاقتصاد والاجتماع والتاريخ

إلخ... وقد أدى كل ذلك إلى إضعاف عامل الوحدة الثقافية في واقع الأمة.

4- التعثر في البناء الاقتصادي والعلمي:

لقد وعدت القيادات القومية العربية الأمة في مطلع القرن العشرين بالاستقلال الاقتصادي، وبارتفاع مستوى الدخل الفردي، وباغتناء المجتمع، وتحويله إلى مجتمع صناعي إلخ... لكن النتائج كانت على عكس ذلك فهناك أزمات في كل مجال، فهناك أزمة في السكن، وهناك أزمة في الزراعة، وهناك أزمة في الصناعة، وهناك أزمة في الطعام إلخ... أما في المجال التعليمي فإن الإحصائيات تشير إلى أن 40٪ من سكان العالم العربي أميون، كذلك تشير الإحصائيات إلى محدودية الابتكارات العلمية في الجامعات العربية، وإلى محدودية عدد الكتب المطبوعة في الدول العربية بالمقارنة مع دول العالم الأخرى [1]، وإلى قلّة المستخدمين للحاسوب والانترنت

---

(1) يشير تقرير التنمية الإنسانية الصادر عن الأمم المتحدة والجامعة العربية في ربيع عام 2002م، أن الدول العربية تأتي في مؤخرة دول العالم، فالناتج القومي لأسبانيا وحدها يوازي إنتاج جميع الدول العربية، ويوضح التقرير أن الاستثمار في ←

إلخ...

5- تغريب قسم من المجتمع وضياع قسم آخر منه:

لقد تسببت ايديولوجيا القومية العربية في تغريب قسم من أفراد المجتمع، وذلك لأنها جعلت الحضارة الغربية نموذجها المحتذى في كل الأمور الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفنية إلخ...، كما تسببت في ضياع قسم آخر، وهذا القسم لم يقبل التغريب من جهة، ولم يستطع الحفاظ على الهوية الإسلامية من جهة ثانية.

* * *

ننتهي من كل الحديث السابق عن منجزات النهضة إلى أن ايديولوجيا القومية العربية فشلت في إقامة الوحدة، وفي منع قيام إسرائيل أو توسعها، وفي بناء اقتصاد مزدهر ومستقل، وعلى العكس من ذلك ساهمت في تهديم الوحدة الثقافية وفي التسبب في

مجال البحث والتطوير في العالم العربي لا يزيد عمره عن 0.5٪ من الناتج القومي، ويمثّل أقل من 1/4 المتوسط العالمي، وأن نسبة البطالة في البلدان العربية تبلغ 15٪ وهي أعلى نسبة في العالم، ويحذر التقرير من الأوضاع الاقتصادية السيئة لأن 20٪ من سكان الدول العربية يقل متوسط دخلهم عن دولارين في اليوم فقط.

تغريب قسم كبير من المجتمع، وقد أدى كل ذلك إلى توليد أمراض لم تعرفها الأمة في سابق عهودها [1]، والسؤال الآن: لماذا فشلت ايديولوجيا القومية العربية كل ذلك الفشل؟

لقد فشل الفكر القومي العربي كل ذلك الفشل نتيجة عدة عوامل يتعلق بعضها بنظرته إلى الواقع المحيط به وتحليله له من جهة، ويتعلق بعضها الآخر بمضمونه والعناصر التي قام عليها، لذلك نحن سنحلّل كل تلك العوامل، ونتساءل في البداية: هل كانت هناك ظروف تاريخية تستدعي انفصال العرب عن الأتراك؟ وهل كانت هناك عوامل داخلية تستدعي قيام الثورة العربية الكبرى عام 1916م؟ وهل كانت هناك عناصر موضوعية تتطلب انبثاق ايديولوجيا القومية العربية؟

❋ ❋ ❋

(1) أضعفت ايديولوجيا القومية العربية الأمة خلال مائة عام أكثر من كل ضعفها خلال ألف عام، وذلك بسبب أنها أورثتها أمراضاً جديدة لم تعرفها خلال مسيرتها كلها، وذلك بسبب التنكر الكامل لأبرز عوامل وجودها.

لماذا انفصل العرب عن الأتراك ؟

انطلقت الدعوة إلى القومية العربية في القرن التاسع عشر من عند مسيحيي بلاد الشام فاهتمت المدارس البروتستينية في منتصف القرن التاسع عشر باللغة العربية، كما اهتمت عائلات مسيحية بنشر الأدب العربي وبعض القواميس اللغوية، وأبرز هذه العائلات عائلتا البستاني واليازجي، ثم أصبحت الدعوة إلى القومية العربية أكثر تبلوراً عندما دعت بعض الشخصيات والأحزاب التركية إلى الطورانية وأبرزها حزب الاتحاد الذي دعا إلى تتريك الخلافة العثمانية، فكان رد الفعل عند العرب بروز تيارات تدعو إلى القومية العربية، ونشأت عدة جمعيات منها: جمعية العربية الفتاة، والجمعية القحطانية إلخ... ثم وقع انفصال العرب عن الخلافة العثمانية أثناء الحرب العالمية الأولى وبعد الثورة العربية الكبرى عام 1916م ، فلماذا انفصل العرب عن الأتراك؟ هل استوجبت الانفصال ظروف العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلخ...؟ علينا أن ندرس الفترة التي سبقت مجيء الفكر القومي العربي.

قامت الخلافة العثمانية على عدة أجناس وعروق، وكان العرب والأتراك أبرز جنسين قامت عليهما تلك الخلافة، ولم يعان هذان الجنسان أية مشاكل بينهما [1] منذ مجيء الأتراك إلى بلاد الشام ومصر إثر القضاء على المماليك في معركة مرج دابق عام 1516م، لكن ظهرت توترات محدودة في فترة متأخرة من القرن التاسع عشر بين بعض الجاليات المسيحية والخلافة العثمانية إثر تدخل الدول الأوربية في نظام الملل العثماني كما وقع في جبل لبنان عام 1860م، حين تدخّلت دولة فرنسا من أجل حماية الموارنة من اعتداء الدروز عليهم، وحيث انتهى الحصار على الساحل اللبناني

(1) ألقى الدكتور زين نور الدين زين في كتابه "نشوء القومية العربية" الأضواء على العلاقة بين العرب والأتراك خلال الحكم العثماني، ودلل على أن العرب كانوا يتمتعون بوضع متميز، وكذلك اللغة العربية، ولم يعان أي منهما أية مشاكل إلا في الفترة المتأخرة بعد ظهور التوجهات الطورانية المغالية في التعصب التركي تأثراً بالتوجهات القومية في أوروبا، ومن شاء التفصيل في هذه العلاقة فليعد إليه.

بـإقرار الخلافـة العثمانيـة في اسـتانبول لنظـام اسـتقلالية الحكـم في متصرفية جبل لبنان، والذي يقوم على الطائفتين: الدرزية والمارونية.

ومما يؤكـد أن العلاقـة بين العرب والأتـراك كانـت طبيعيـة إلى فترة متأخرة من وجود الخلافة العثمانية هـو انعقـاد المؤتمر العربي في بـاريس عـام 1913م، والـذي ضـم كـل الفصـائل ذات التوجـه القـومي في سـورية ولبنـان وفلسـطين والعـراق، وكانـت أبـرز طلباتـه وقراراتـه تتعلـق بالخدمـة العسـكرية، واللامركزيـة في الشـؤون الإداريـة إلخ... ولم يـأت أي ذكـر للانفصـال عـن الخلافـة العثمانيـة، بـل اعترفـت القـرارات بالرابطـة العثمانية كرابطـة تجمـع بين الأجنـاس في السـلطنة العثمانيـة. إذن مـا الـدوافع الـتي اسـتدعت انفصـال العـرب عـن الأتـراك وبـروز الفكـر القـومي العـربي كأيديولوجيـة للأمـة أثنـاء الحرب العالمية الأولى وبعدها؟

لم يكـن انفصـال العـرب عـن الأتـراك حاجـة حقيقيـة ملحـة نابعة من ظرفهم كما سبق أن وضحنا، وإنما كـان انفصـالهم مطلباً مـن مطالـب الـدول الكـبرى، مـن أجـل تقسـيم الخلافـة العثمانيـة واستعمار أراضيها، وقـد اسـتخدمت الـدول الكـبرى الطوائـف مـن

أجل تحقيق هدفها في فرض هيمنتها وسياساتها الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية إلخ...

وقد استغلت الدول الكبرى وقوف الخلافة العثمانية إلى جانب ألمانيا في الحرب العالمية الأولى من أجل دعوة العرب إلى الانفصال عن الخلافة العثمانية, وقد أعلن الشريف حسين الثورة على الأتراك في حزيران من عام 1916م، وقد تم طرد الجيوش العثمانية من فلسطين وسورية في عام 1917م، ثم انتدبت عصبة الأمم انكلترا على العراق وفلسطين والأردن، كما انتدبت فرنسا على سورية ولبنان، وقامت دول ذات ايديولوجيا قومية عربية في العراق والأردن وسورية أثناء الانتداب وبعده.

❋ ❋ ❋

لقد رفعت الثورة العربية شعار "العروبة" في وجه القوميين الأتراك، كما استند إليه القوميون العرب في مواجهتهم الخلافة العثمانية، فما حقيقة مفهوم "العروبة" في تراثنا؟ وكيف تعامل معه دعاة ايديولوجيا القومية العربية؟

"العروبة" في التراث وعند القوميين العرب

عند العودة إلى "لسان العرب" نجد في مادة (ع.ر.ب) ما يلي: عَرب الرجل يعرُبُ عرْباً وعروبا، عن ثعلب، وعُروبةً وعَرابةً وعروبيّة، كفصُح، وعَرِب إذا فصُح بعد لكنة في لسانه! ورجل عريبٌ معرِبٌ.

وعرُب لسانه، بالضم، عُروبةً أي صار عربيا، وعربي بيّن العروبة والعروبية، وهما من المصادر التي لا أفعال لها. وحكى الأزهري: رجل عربي إذا كان نسبه العربي ثابتاً، وإن لم يكن فصيحاً، وجمعه العرب، كما يقال: رجل مجوسي ويهودي، والجمع بحذف ياء النسبة، اليهود والمجوس. ورجل مُعرِبٌ إذا كان فصيحاً، وإن كان عجمي النسب.

وفي حديث الجمعة: كانت تسمى: عَروبة، هو اسم قديم لها، وكأنه ليس بعربي. يقال: يومُ عَروبةٍ، ويوم العَروبة، والأفصح أن لا يدخلها الألف واللام. قال السهيلي: في الروض الأُنُف: كعب بن لؤي جد سيدنا رسول الله ﷺ، أول من جمّع يوم العَروبة، ولم تسم العَروبة إلا مذ جاء الإسلام، وهو أول من سمّاها الجُمعة،

وكانت وكشيء تجتمع إليه في هذا اليوم، فيخطبهم ويذكرهم بمبعث النبي ﷺ، وتعليمهم أنه من ولده، ويأمرهم باتباعه والإيمان به، وينشر في هذا أبياتاً، منها:

يا ليتني شاهدٌ فحواءَ دعوته إذا قريش تبغيّ الخلق خذلانا

كما رود في القاموس المحيط: "عَروبة وباللام يوم الجُمعة".

الآن من خلال النقول السابقة نجد أن كلمة "العَروبة" بالفتح تعني في تراثنا اسماً ليوم والذي سماه الإسلام بعد ذلك يوم الجمعة، أما كلمة "العُروبة" بالضم فترتبط بأمرين: اللغة العربية أو النسب العربي. هذا عن مفهوم "العروبة" في التراث ، فكيف تعامل معه القوميون العرب ؟ فهل وقفوا عند معانيه ودلالاته التراثية ؟ أم أنهم حمّلوه معاني ودلالات أخرى ؟ الحقيقة أنهم لم يقفوا عند محدّدات التراث له بل حمّلوه دلالات أخرى ، أبرزها :

1- أصبحت العروبة عند القوميين العرب هي الرابطة التي تجمع العرب عوضاً عن رابطة الإخاء التي رسخها الإسلام والتي

كانت تجمع العرب بعضهم مع بعض، وكانت تجمعهم مع غيرهم من الأجناس.

2- رفع القوميون العرب "العروبة" إلى مصاف الايديولوجيا، ولما كان المضمون الثقافي لمفهوم "العروبة" في الإطار العربي الإسلامي لا يتعدى معنى البلاغة أو النسب كما رأينا، اضطر القوميون العرب إلى اللجوء إلى مصادر أخرى من أجل ملء مضمون هذه الايديولوجيا مرة من الفكر الليبرالي، ومرة من الفكر الاشتراكي، ومرة من الماركسية، ومرة من الفكر الفاشي، ومرة من النظرية القومية الألمانية إلخ...، الخلاصة لقد أصبح الاتكاء على الحضارة الغربية ضرورة أساسية من أجل القيام بعملية الملء تلك.

3- لم يسفر الحديث عن ثنائية العروبة والإسلام عند بعض المفكرين القوميين من مثل محمد عزة دروزه في مطلع القرن، ومن مثل عصمت سيف الدولة في الربع الأخير من القرن العشرين عن أي جديد في النظرة إلى العوامل التي تقوم عليها

الأمة [1]، بل بقي الدين الإسلامي مستبعداً من تكوينها، وهو ما أدى إلى أن لا يترك الحديث عن ثنائية العروبة والإسلام أي أثر جوهري في المجتمعات العربية التي تحكمها القيادات القومية العربية، بل بقي الحديث عاماً وعاطفياً وغير ذي قيمة علمية وموضوعية وعملية.

الخلاصة التي يمكن أن ننتهي إليها من تعامل دعاة الفكر القومي العربي مع مفهوم "العروبة" أنهم لم يقفوا به عند دلالاته التراثية بل حمّلوه معاني أخرى فجعلوه مرة رابطة، ومرة "أيديولوجيا"، ولما كان التراث لا يساعدهم في مثل ذلك لجأوا إلى الحضارة الغربية لملء هذا المضمون، ونستطيع أن نقول بشكل مؤكد أن هذا المفهوم اختفى لصالح مفاهيم أيديولوجية: قومية مرة، وماركسية مرة أخرى.

❋ ❋ ❋

(1) انظر تفصيلاً لهذا الرأي في كتاب: "من حملة مشاعل التقدم العربي: عصمت سيف الدولة" الذي أصدره مركز دراسات الوحدة العربية.

بعد أن ألقينا الضوء على الظرف التاريخية لنشأة ايديولوجيا القومية العربية، وتحدثنا عن صورة تعاملها مع مفهوم "العروبة"، نتساءل: كيف نظر دعاة ايديولوجيا القومية العربية إلى العصور المتأخرة من تاريخنا وبخاصة إلى عصري المماليك والعثمانيين؟ هذا ما سنلقي عليه الضوء في الصفحات التالية لأنه يبرز مدى الخطأ الذي وقع فيه دعاة ايديولوجيا القومية العربية في تشخيصهم لواقع الأمة، لأن التشخيص الخاطئ يستدعي معالجات وحلولاً خاطئة.

كيف نظر دعاة ايديولوجيا القومية العربية إلى العصور المتأخرة من تاريخنا ؟

وصم المفكرون القوميون عصري المماليك والعثمانيين بأنهما عصرا انحطاط معتمدين على التصنيف الذي يقسم تاريخنا إلى عصر نشأة، ثم عصر ترجمة، ثم عصر إبداع فكري، ثم عصر جمود وانحطاط، وعندما فصل القوميون ذلك لم ينطلقوا في أحكامهم السابقة من دراسة الواقع، إنما كان من إنزال تاريخ أوروبا على تاريخنا، ومن المقايسة بين مسيرة أوروبا ومسيرتنا، فأوروبا ذاقت الاستبداد، ومرّت بعصر انحطاط، ثم عصر تنوير ونهضة، لذلك لا بد من أن تذوق أمتنا الأمراض نفسها، وتعرف المراحل نفسها، فإلى أي حد تصح المشابهة السابقة بين تاريخنا وتاريخ أوروبا؟ وإلى أي حد يمكن المقايسة بين الواقعتين؟ وإلى أي حد يصدق القول بأن تاريخنا هو تاريخ استبداد بالمعنى الأوروبي لكلمة استبداد؟ وإلى أي حد يصح اعتبار الفترة العباسية المتأخرة والعصرين: المملوكي والعثماني عصور انحطاط؟ هذا ما سنستعرضه في السطور التالية.

هل يمكن اعتبار العصر العباسي المتأخر وعصر المماليك وعصر العثمانيين عصور انحطاط ؟

درس بعض الباحثين تاريخ حضارتنا وقسموه إلى عدة مراحل، واعتبروا العهدين المملوكي والعثماني من عهود الانحطاط، وأبرز مظاهر الانحطاط في رأيهم: جمود العقول، وقلّة الإبداع العلمي، والتكرار والاجترار في الإنتاج العلمي إلخ...، ومن أبرز الذين شرحوا هذه الحالة ونظّروا لها الدكتور محمد عابد الجابري [1] في كتبه عن العقل العربي ، فماذا جاء فيها عن انحطاط الأمة ووجودها العقلي والعلمي ؟

لقد اعتبر الجابري أنّ أهم عامل ساهم في تكوين العقل العربي هو عصر التدوين، لأنه الإطار المرجعي الذي يشد إليه جميع

(1) تعرض مالك بن نبي في كتبه عن مشكلات الحضارة، للفكرة نفسها، ولكن سمّاها تسمية أخرى هي "القابلية للاستعمار"، واعتبر أن الأمة أصبحت معطلة الفاعلية منذ عهد "الموحّدين" لكنّه لم يفصّل تفصيل الجابري في توضيح الفكرة وشرحها والتدليل عليها.



فروع الثقافة وينظم مختلف تموجاتها اللاحقة إلى يومنا هذا، فصورة العصر الجاهلي وصورة صدر الإسلام والقسم الأعظم من العصر الأموي إنما نسجتها خيوط منبثقة من عصر التدوين، وقد استند الجابري في تقرير ذلك إلى نص للذهبي يقول فيه: "في سنة ثلاث وأربعين ومائة للهجرة شرع علماء الإسلام في هذا العصر في تدوين الحديث والفقه والتفسير فصنف ابن جريج بمكة، ومالك للموطأ بالمدينة، والأوزاعي بالشام، وابن أبي عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة، ومعمر باليمن، وسفيان الثوري بالكوفة، وصنف ابن اسحاق في المغازي، وصنف أبو حنيفة رحمه الله الفقه والرأي. ثم بعد يسير صنف هشيم والليث وابن لهيعة ثم ابن المبارك وأبو يوسف وابن وهب. وكثر تدوين العلم وتبويبه، ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس. وقبل هذا العصر كان الناس يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة" (تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي، ص416).

ثم درس الجابري الأنظمة المعرفية التي شكلت بنية العقل العربي، وأشار إلى أزمته التي نتجت عن تصادم وتداخل الأنظمة

المعرفيـة الثلاثيـة وهـي البيـان والعرفـان والبرهـان، وكـان أبـو حامـد الغـزالي الـذي تشـخّص في تجربتـه الروحيـة وإنتاجـه الفكـري هـذا التصادم والتداخل.

ثم أشـار الجـابري إلى لحظتـين متمـايزتين في العقـل العـربي، الأولى: تمتد من بدايات عصر التدوين إلى لحظة الغزالي كان العقل العربي فيها فاعلاً منتجاً. الثانية: ما بعد لحظة الغزالي ابتدأ ما أسماه بالتـداخل التلفيقـي بـين النـظم المعرفيـة الثلاثـة وأصبـح العقـل العـربي فيها جامداً.

لكـن الـدكتور جـورج صـليبا توصّـل في كتـاب جديـد تحـت عنوان "الفكر العلمي العربي: نشأته وتطوره" [1] إلى نتائج مخالفة لما توصّل إليه الكاتبان السابقان، لأنه اتبع منهجية جديدة في دراسة العلـوم العربيـة، وتقـوم هـذه المنهجيـة عـلى رصـد التطـورات العلميـة للعلـوم العربيـة وعلـى عـدم الانطـلاق مـن نظريـات مسـبقة، وطبـق

---

(1) صـدر الكتـاب عـن مركـز الدراسـات المسـيحية الإسـلامية في جامعـة البلمند عام 1998م.

ذلك على علم الفلك فتوصّل إلى أنّ العصر الذهبي لعلم الفلك العربي هو العصر الذي يطلقون عليه عصر الانحطاط بالنسبة للعلوم العربية بشكل عام، ويشير في هذا الصدد إلى نظريات ابتدعها نصير الدين الطوسي في كتابيه "تحرير المجسطي" الذي ألفه عام 1247م، و "التذكرة في الهيئة" الذي ألفه بعد الكتاب السابق بنحو ثلاث عشرة سنة، وقد أفرد الطوسي فصلاً كاملاً للرد على علم الفلك اليوناني ولإقامة هيئته البديلة، وفي أثناء هذا العرض يستخدم الطوسي مرة ثانية النظرية الجديدة التي كان قد اقترحها بشكل مبدئي في كتاب "تحرير المجسطي"، وإذا بهذه النظرية تظهر هي الأخرى بعد حوالي ثلاثة قرون في أعمال كوبرنيك بالذات وبالشكل الذي ظهرت فيه في "تذكرة" الطوسي.

وقد درس المستشرق كارادي فو هذا الفصل بالذات من "تذكرة" الطوسي في أواخر القرن التاسع عشر، وكان قد عثر فعلاً على نظرية الطوسي الجديدة، لكنه لم يستطع أن يضعها في إطارها الصحيح لأنه كان يعمل ضمن العقلية التي لا تتوقع أن تجد أعمالاً إبداعية في هذه المرحلة المتأخرة التي وسمت بعصر الانحطاط.

ولم يتوقف الأمر عند الطوسي وحده بل شمل الإبداع في علم الفلك عشرات من الآخرين في القرون التالية وكان من أبرزهم شمس الدين الخفري الذي كان معاصراً لكوبرنيك والذي كان يتحلّى بمقدرة رياضية وبدراية في دور الرياضيات في صياغة العلوم، ندر أن يوجد مثلها في أعمال الذين أتوا قبل القرن السابع عشر الذي تم فيه فعلاً تكوين العلم الحديث.

وأشار الدكتور صليبا إلى خطأ وقع فيه مستشرق آخر هو فرانسوا نو في قراءته أواخر القرن الماضي لكتاب "سلّم الإدراك" السرياني لابن العبري من القرن الثالث عشر الميلادي عندما لم يستطع أن يفهم عمق الانتقادات الموجهة لعلم الفلك اليوناني التي كانت تتم في مدينة مراغة وفي غيرها من المدن الإسلامية، لأنه لم يكن يتوقع أي جديد أيضاً في هذه الحقبة المتأخرة التي كانت موسومة بالانحطاط والجمود العقلي.

وبناء على هذه الإشارات التي توفّرت لدى الدكتور جورج صليبا دعا إلى إعادة النظر في تقسيم تاريخ حضارتنا إلى فترات: عصر نشأة، وعصر ترجمة، وعصر إبداع فكري، ثم عصر جمود

وانحطــاط، لأنّ هــذا التقســيم منســوب إلى المستشــرقين الــذين يعتمدون مركزية الحضارة الغربية من جهة، ولأنه يناقض التطورات الحقيقية للعلوم العربية التي عرفت ازدهاراً في العصر الذي يسمونه عصر الانحطاط من جهة ثانية.

❋ ❋ ❋

والآن بعد أن رأينا خطأ المفكرين القوميين في تقسيم تاريخنا إلى عصر نشأة ثم ترجمة ثم ازدهار ثم انحطاط، وفي اعتبارهم العهدين المملوكي والعثماني عصري انحطاط، ننتقل إلى مناقشة شبهة أخرى، وهي اعتبارهم تاريخنا تاريخ استبداد بالمعنى الأوروبي للكلمة.

هل تاريخ أمتنا تاريخ استبداد ؟

تحدث مفكرو النهضة وكتّابها عن الاستبداد، وأبرزهم عبد الرحمن الكواكبي في كتابه المشهور "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" الذي ألّفه عام 1902م، واعتبروه أخطر مرض واجهته الأمه، وجاراهم في ذلك المفكرون القوميون واعتبروا بداية ذلك مع تسلط الأجناس الأخرى غير العربية على الخلافة، واعتبروا الحرية والتحرر شعاراً رئيسياً من شعاراتهم في كل مرحلة من مراحل عملهم القومي، ولا خلاف معهم في أن النظام السياسي الإسلامي لم يطبق آراءه النظرية التي تقوم على الشورى، والعدل، والاختيار، والتي فصل الفقهاء الحديث عنها في الأحكام السلطانية بشكل عام، وعرف ظلماً حاق بالأشخاص وببعض الفئات الاجتماعية، وذلك بسبب أنه لم يطبق مبدأ الاختيار الذي أكده الصحابة في اختيار أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه في كل مراحل تاريخنا الماضي، ولم يحدّد الآلية التي تنفذ ذلك، لكنه لم يعرف الاستبداد. إذن من أين جاء مفهوم الاستبداد؟ وهل يمكن تطبيقه على تاريخنا؟ وكيف جرى الحكم في تاريخنا؟ وما أبرز آلياته؟

جاء مفهوم الاستبداد من النظام الإقطاعي الغربي في العصور الوسطى حيث كان يملك الإقطاعي فيه الأرض ومن عليها من بشر وحيوان ونبات وشجر، ويتحكم فيهم حسب أهوائه ومزاجه وحسب ما يروق له دون وجود لقانون يرسم أفقاً أو حداً لتصرفاته وأعماله، لذلك عندما جاءت الثورات التي انبثقت عن المرحلة البرجوازية وحملت معها الدستور، اعتبرت هذه الوثيقة (الدستور) التي تحدّد بعض جوانب العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وتبيّن واجبات الحاكم والمحكوم وحقوقهما، اعتبرت نهاية لعهد الاستبداد لأنها انتقلت في العلاقة بين الحاكم والمحكوم من العلاقة غير المحددة بأية قواعد أو ضوابط إلى العلاقة المحددة ببعض القواعد والضوابط، ولكن هذه الخاصية كانت موجودة منذ اللحظة الأولى في تاريخنا حيث كان القرآن الكريم دستوراً لأمتنا لم يحدد العلاقة بين الحاكم والمحكوم فحسب، بل فصّل علاقة الحاكم بالمحكوم وبيّن واجبات الحاكم، من مثل: وجوب الشورى، وإقامة الصلاة، وجباية الزكاة وتوزيعها في مصارفها المحدّدة، ونشر الدين، وتحديد العقوبات التي يمكن أن يوقعها الحاكم على المحكومين من مثل:

حد السرقة، وحد الزنا، وحد الحرابة، وحد شرب المسكرات إلخ... وبيّن واجبات المحكوم من مثل: الطاعة طالما أن الحاكم مطيع الله ورسوله ﷺ، والنصح للحاكم، ودفع الزكاة، والاستجابة لداعي الجهاد إلخ... إذن هذه التحديدات التي شرعها الإسلام في مجالات الحاكم والمحكوم وفي العلاقة بينهما وفي علاقتهما بالآخرين أزالت سبباً رئيسياً من أسباب الاستبداد، والآن لنر: كيف كانت علاقة الحاكم بالمحكوم والراعي بالرعية على مدار القرون السابقة؟

لقد أنشأ الرسول محمد ﷺ الأمة الإسلامية، وقامت علاقته مع رعيته ﷺ على العدل والمساواة والشورى والرحمة والرأفة والحكمة والعلم إلخ... وكانت نموذجاً للعلاقة المثالية بين الحاكم والمحكوم ولن نفصّل في صورتها وحيثيّاتها لأن خصومنا أو مجادلينا قد يحتجون بأنه لا مجال للمحاججة بخصوص علاقة الرسول ﷺ بالصحابة لأنه نبي تسدّد السماء علاقته برعيته، وينزل عليه جبريل بالحق بخصوصها، وأما الخلفاء الراشدون فيسلّم معظم الدارسين بأن العلاقة بينهم وبين رعيتهم كانت سليمة ومشرقة وإيجابية وقريبة من صورة علاقة الرسول ﷺ بصحابته رضي الله عنهم وحققت العدل

والمساواة والشورى والرحمة إلخ... لذلك لن نخوض في تفاصيلها طالما أنها ليست مجال اختلاف، لكن العصور التالية هي مجال الاتهام بالاستبداد، ونحن من أجل تقرير وجهة نظر صائبة في هذا الموضوع لن نستطيع أن نستقصي في هذا المقال كل وقائع التاريخ الأموي والعباسي والمملوكي والعثماني من أجل استخلاص أحكام دقيقة في مجال الحكم من جهة، ولن نستطيع أن نستقصي كل تفصيلات علاقات الحاكم الإسلامي برعيته خلال كل ذلك التاريخ الطويل من أجل تقرير مدى قربها أو بعدها عن الاستبداد من جهة ثانية، فذلك يحتاج إلى دراسات متعددة نسأل الله العون على تدوينها في أيام قادمه، لكن يكفي في هذا المقال إعطاء مؤشرات عن اتجاه الحكم وعن مدى سلامة علاقة الحاكم بالمحكوم في ذلك التاريخ الطويل، وهو ما سنجتهد أن نقوم به.

تميزت فترة الخلافة الراشدة بأن الخلفاء الراشدين ﷺ كانوا أمراء الأمة وعلماءها في الوقت نفسه، لكن العهد الأموي شهد ظهور قيادتين للأمة هما: قيادة الأمراء وقيادة العلماء، ثم استمرار الأمر على هذه المنوال في العهود التالية: العباسية، والمملوكية،

والعثمانية، وقد كانت قيادة الأمراء تأخذ شرعيتها من التزامها بالشريعة الإسلامية، وهذا ما يمكن أن نعتبره أول عامل ينفي عنها صفة الاستبداد -كما وضحنا ذلك في بداية الحديث- لأنه كان يحدّد علاقتها برعيتها، ويوضح واجبات وحقوق الطرفين: الراعي والرعية، كما أنها (أي قيادة الأمراء) لم تكن تنفرد بقيادة جماهير المسلمين، بل كانت قيادة العلماء تشاركها في هذه القيادة من جهة، وتحاسبها على كثير من تصرفاتها من جهة ثانية مما يقلل من حجم ظلمها وفرصه، ولا أريد أن أعدد أسماء العلماء الذين ساهموا في قيادة المسلمين على مدار التاريخ الماضي أو أعدد المواقف التي تشير إلى محاسبتهم الأمراء، فالتاريخ مملوء بشواهد تدل على الأمرين السابقين، والأمر أجلى وأوضح من أن يحتاج إلى تعداد أو تدليل، ويكفي أن نذكر اسمين هما العز بن عبد السلام وابن تيمية ودورهما في تحريك الأحداث وتوجيهها في عصرهما.

ومما تجدر الإشارة إليه أن قيادة العلماء لم تبق في صورة أشخاص إنما تحوّلت إلى أشبه ما يكون بالمؤسسة مع مرور الزمن فأصبحت هذه القيادة تحتوي عدة وظائف في العهد العثماني،

منها: شيخ الإسلام الذي كان يسكن عاصمة الخلافة استامبول، ويأتي ترتيبه الثاني في البروتوكول الرسمي بعد الخليفة وقبل الصدر الأعظم الذي هو رئيس الوزراء، ومنها أيضاً: القضاة، والفقهاء، ونقباء الأشراف، وخطباء المساجد وأئمتها، والمؤذنون والخدمة، والقرّاء، والوعّاظ إلخ... وكان هؤلاء يأخذون رواتبهم من خلال الأوقاف، وكان القضاة يقومون بالإضافة إلى قضائهم في الخصومات الشخصية والتجارية، بتثبيت مشايخ الحرف وفض منازعاتهم، وكان القضاة بمثابة حكام شرعيين للأمة، وكانوا يقومون بدور صلة الوصل بين الوالي والأهالي، فينقلون أحكام الوالي إلى الأهالي، وينقلون رغبات الأهالي وطلباتهم إلى الوالي.

وبالإضافة إلى قيادة العلماء التي نافست الأمراء على نفوذهم عند جماهير المسلمين، وشاركتهم في هذا النفوذ، ومنعت انفرادهم بالسلطة، برزت قيادات مدنية أخرى في المجتمع الإسلامي كانت تؤدي دوراً أخلاقياً أواقتصادياً أو رقابياً أوثقافياً أو اجتماعياً إلخ...، ومن هذه القيادات التي تطورت على مدار التاريخ الإسلامي: التنظيمات الحرفية، والطرق الصوفية، والحسبة،

والأوقاف، وسأشير باختصار إلى دور كل منها خلال العهد العثماني لأنه -كما قلت- العهد الأكثر اتهاماً من غيره بالاستبداد.

فمن دراسة الحرف والصناعات نجد أن كل حرفة كانت تختار شيخها المناسب بإرادتها الذاتية المحلية، وكانت سلطة شيخ الطائفة تشمل إدارة شؤون أبناء الطائفة، والاهتمام بمشاكلهم، والإشراف على تنفيذ اتفاقاتهم، والطلب من القاضي تسجيل هذه الاتفاقات، وكان يرفع شكاوى الطائفة على طائفة أخرى إلى القاضي بنفسه، وكان الوالي يتصل بأصحاب الحرفة عن طريقه.

وكان شيخ الحرفة يمارس سلطته اعتماداً على العلاقات التنظيمية والأخوية الصادقة التي كانت تربطه بأبناء الطائفة، فعلى المستوى التقني والتنظيمي يخضع التعليم الحرفي لتراتبية دقيقة بدءاً من المبتدئين إلى الصانع وإلى المعلم. وعلى قاعدة هذه التراتبية لشيخ الحرفة الحق في أن يشدّ بالكار (الصنعة) المبتدئين الماهرين فيصيرون صناعاً أو معلمين. وحفلة الشدّ حفلة ترفيع المبتدئ إلى صانع أو الصانع إلى معلّم، هي حفلة ذات طابع ديني، ويظهر

ذلك في قراءة "الفاتحة" والأدعية والأناشيد النبوية التي تتخلّل الحفلة، وإسباغ جو من الورع والتقوى على "المشدود" والحاضرين، والتشديد على "العهد" و"الميثاق" و"الأخوة" أمام الله والجماعة، وكان المشدود يعاهد المعلم على أن يلتزم بقواعد منها: الإتقان، عدم الغش، والتسعيرة العادله، التضامن مع رفاق المهنة إلخ...

وكان هناك "شيخ مشايخ الحرف أو شيخ التجار" وكان يعيّن بإجماع التجار ويشترط فيه أن يكون صاحب دين وأخلاق أهلاً للمشيخة لائقاً بها، وأن يختاره ويرضى به كامل التجار، وأن يوافق القاضي والسلطان على تعيينه، وكانت مهمة هذا الشيخ تشمل الإشراف على كل طوائف الحرف ومشايخها، ويقوم بصلة الوصل بين الوالي والقاضي من جهة، وهذه الطوائف من جهة أخرى، ولا يتم أي تغيير إلا بعلمه ورأيه، وكان مشايخ الحرف كلهم يُنتخبون بحضوره ويُزكّون بتزكيته.

نشأت الحسبة في مرحلة مبكرة من تاريخ المجتمع الإسلامي، ثم تطوّرت فأصبح يرأسها محتسب ومعه محتسبون معاونون، مهمتهم المحافظة على الآداب والأخلاق والنظافة والحشمة ومنع

الغش وعدم الاختلاط ... وقد كانت تهدف أن تجعل الأخلاق الإسلامية سجية وطبعاً ليبقى المجتمع محافظاً على شخصيته وهويته.

أما الأوقاف فقد شغلت ثلث ثروة العالم الإسلامي كما ذكرنا سابقاً في أكثر من موضع في هذا الكتاب، وقامت بدور اجتماعي وثقافي واقتصادي، فقد أنشأت المدارس والمكتبات، وأنفقت على العلماء وطلاب العلم، كما كلفت بعض العاملين بنسخ الكتب من أجل إيقافها على طلاب العلم، كما أنشأت الأوقاف المستشفيات التي كانت تعالج الناس مجاناً، كما أنشأت الخانات التي كانت تؤوي الناس على الطرقات، كما أوقفت الدور التي تساعد الفقراء وتؤويهم وتطعمهم إلخ...

الخلاصة: لم تعرف أمتنا الاستبداد بالصورة التي عرفها المجتمع الإقطاعي الغربي في العصور الوسطى، ومثّل التزام الأمراء المسلمين بتنفيذ الشريعة الإسلامية الشرط الأول لمنحهم الشرعية من قبل الأمة كما مثل هذا الالتزام نفياً للاستبداد لأنه الوثيقة الدستورية التي اعتبر الغرب وجود مثلها إنهاء للاستبداد في حياته

السياسية، وقامت قيادة العلماء بدور القيادة الموازية لقيادة الأمراء على مدار التاريخ الإسلامي مما جعلها تواجه ظلم الأمراء فتقلل من حجمه حيناً، وتبطله حيناً آخر، كما قامت مؤسسات وروابط أخرى من مثل: المنظمات الحرفية، والحسبة، والأوقاف، بدور الوسيط بين جماهير المسلمين والقيادة الحاكمة حيناً، وتوسيع هامش الاستقلال في حياتهم حيناً آخر، وإبعادهم عن تدخلات الأمراء حيناً ثالثاً، وفي كل الأحوال قامت تلك المؤسسات والروابط والقيادات بإغناء الجانب المدني والثقافي والاقتصادي والاجتماعي والرقابي في حياة جماهير المسلمين إغناء فريداً، ورعايته وتوسيع دائرته .

* * *

استعرضنا فيما سبق موقف الفكر القومي العربي من تاريخ أمتنا، ورأينا كيف أنه شخص العهدين المملوكي والعثماني وجانباً من العصر العباسي بأنها عصور انحطاط، وكذلك اعتبر العهود العباسية والمملوكية والعثمانية عهود استبداد، ولم يكن مصيباً في كلا التشخيصين، بل كان ناقلاً لمقولات أوروبا، ومنزلاً إياها على

تاريخنا، وأوقعه هذا الخطأ في التشخيص في خطأ آخر، وهو ضرورة البحث عن بديل للرابطة القائمة وهي العثمانية، وعن بديل للأيديولوجيا الموجودة وهي أيديولوجيا الدين الإسلامي، فنقل فكرة الأيديولوجيا القومية التي سادت أوروبا في القرن التاسع عشر، فما القومية العربية التي دعا إليها دعاة الفكر القومي العربي؟ وما مضمونها؟ هذا ما سنجتهد في توضيحه وتحليله في الفصل الثاني.

الفصل الثاني

ايديولوجيا القومية العربية:

تحليل المضمون

النظريات القومية في الغرب

اعتبر ساطع الحصري أن القرن التاسع عشر هو قرن القوميات في أوروبا، وأن القرن العشرين هو عصر القوميات في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وهناك عدة نظريات تفسّر نشوء القوميات والأمم وأبرزها:

1- النظرية الألمانية:

وتعتبر أن أهم عوامل نشوء الأمم وتكوينها عاملان، هما: اللغة والتاريخ، وأبرز من دعا إلى هذه النظرية المفكرون الألمان، واعتبرت خطب فختة عام 1807م بداية لتكون الأمة الألمانية.

2- النظرية الفرنسية:

وتعتبر أن أهم عوامل نشوء الأمم هو إرادة العيش المشتركة في دولة واحدة هي الأصل في نشوء الأمم، وتعتبر هذه النظرية أن الدولة هي التي تنشىء الأمة، وأنها سابقة عليها، وتعطي هذه النظرية دوراً كبيراً للعوامل الجغرافية في نشوء الأمم والدول.

3- النظرية الستالينية:

وتعتبر هذه النظرية أن الأمم تأتي حصيلة عدة عوامل هي: الجماعة المستقرة على أرض محددة، وذات اقتصاد مشترك، ولغة واحدة، وذات تراث ثقافي مشترك.

وقد وجدت كل من النظريات الثلاث صداها في العالم العربي فقامت أحزاب وجماعات متبنية النظرية الألمانية وأبرزها التي تدعو إلى القومية العربية، وقامت أحزاب وجماعات تدعو إلى النظرية الفرنسية وأبرزها الحزب القومي السوري الاجتماعي في سورية والأحزاب التي تدعو إلى القومية المصرية الفرعونية في مصر، أما النظرية الستالينية فقد تبنتها الأحزاب الشيوعية في العالم العربي، ونحن سنقف عند النظرية الأولى لأنها النظرية التي تبنتها الشخصيات القومية العربية والأحزاب القومية العربية، التي أصبحت لها قيادة العالم العربي بعد ثورة 23 يوليو عام 1952م في مصر بقيادة جمال عبد الناصر، في حين انتهى دور الأحزاب التي تبنت النظرية الفرنسية من أمثال الحزب القومي السوري الاجتماعي، وحزب الوفد المصري.

فما الذي يقوم عليه الفكر القومي العربي؟ ما مضمونه؟ ومن أبرز دعاته ومنظّريه؟

تحليل مضمون ايديولوجيا القومية العربية



ساطع الحصري [1] أبرز دعاة القومية العربية وأقدمهم وروائدهم، ألقى عشرات المحاضرات حول فكرة القومية العربية، وقد أبرز في محاضراته أن القومية العربية تقوم على عنصري اللغة والتاريخ، واعتبر أن اللغة روح الأمة، وأن التاريخ ذاكرة الأمة

(1) ولد ساطع الحصري عام 1880م في حلب من سورية، وعمل أبوه قاضياً في اليمن، ودرس ساطع الحصري في مدارس استانبول، ثم عمل مدرّساً في المناطق الواقعة غربي اليونان قبل الحرب العالمية الأولى، ثم التحق بالملك فيصل بعد اندلاع الثورة العربية الكبرى عام 1916م، وفاوض الجنرال الفرنسي غورو مبعوثاً من قبل الملك فيصل قبل هجوم الأول على دمشق وقبل وقوع معركة ميسلون على أبوابها عام 1920م، ثم رحل الحصري مع الملك فيصل إلى بغداد بعد أن توّج ملكاً عليها، واحتل مناصب إدارية وتربوية عالية، ثم طرد منها بعد ثورة رشيد علي الكيلاني عام 1941م، ثم عاش في سورية وعمل في إصلاح المناهج التربوية، ثم عمل في الجامعة العربية في القاهرة إلى أن توفي عام 1968م.

(لمزيد من التفاصيل عن حياة ساطع الحصري انظر الفصل الأول من كتاب: "ساطع الحصري: ثلاثون عاماً على الرحيل"، وانظر كتاب: "ساطع الحصري: رائد القومية العربية").

وشعورها، وقد دون ذلك في نهاية كتابه "ما هي القومية؟" فقال تحت عنوان (كلمة ختامية في نتيجة الأبحاث): "إن الوقائع والأحداث وضحناها وشرحناها، والنظريات التي استعرضناها وناقشناها في مختلف فصول هذا الكتاب تؤدي بنا إلى الحقائق التالية: أس الأساس في تكوين الأمة وبناء القومية هو وحدة اللغة والتاريخ [1]. لأن الوحدة في هذين الميدانين هي التي بؤدي إلى وحدة المشارع والمنازع، وحدة الآلام والآمال، وحدة الثقافة، وبكل ذلك تجعل الناس يشعرون بأنهم أبناء أمة واحدة، متميزة عن الأمم الأخرى.

ولكن لا الدين، ولا الدولة، ولا الحياة الاقتصادية تدخل بين مقومات الأمة الأساسية. كما أن الرقعة الجغرافية أيضاً لا يمكن أن

(**1**) عند التدقيق لا نجد أمة عربية في أرض الواقع بالمعنى الذي طرحه الحصري، بل هي موجودة في خيال الحصري بخاصة والقوميين بعامة، لأن الأمة القائمة والموجودة عندما طرح الحصري نظريته أمة تقوم على عامل الدين الإسلامي، لا على عاملي اللغة والتاريخ كما طرح الايديولوجيون القوميون العرب.

تعتبر من المقومات الأساسية، وإذا أردنا أن نعيّن عمل كل من اللغة والتاريخ في تكوين الأمة قلنا: اللغة تكوّن روح الأمة وحياتها، والتاريخ يكوّن ذاكرة الأمة وشعورها" [1].

وعندما قال الحصري ذلك عن دور اللغة والتاريخ في صنع كيان الأمة، كان ينقل ذلك القول عن النظرية الألمانية في صياغة الأمة، لكننا عندما ندقق في وضع أمتنا نجد أن اللغة والتاريخ وحدهما لا يكفيان لتفسير الوحدة التي تتمتع بها في مختلف المجالات الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والعقلية والمصالح والآمال والتطلعات والأذواق والأشواق إلخ... [2]، بل نجد أن الوحدة

(**1**) ساطع الحصري، ما هي القومية؟، ص251.

(**2**) إن المتفحص للفكر القومي العربي عند الحصري وغيره يجد أنه فكر غير واقعي وغير موضوعي لأنه لم ينطلق في تحديد عوامل بناء الأمة من دراسة الواقع المحيط به، بل أسقط تاريخ أوروبا على تاريخنا، وعندما وجد بعض المشابهات الجزئية بين تجزئة ألمانيا وتجزئة الدول العربية اعتمد النظرية الألمانية، إن عدم الواقعية وعدم الموضوعية في الفكر القومي العربي هي التي جعلته لا ينجح في تحقيق أي هدف من أهداف النهضة.



مرتبطة بالقرآن والسنة، فلا يمكن أن نفهم عادات الناس القاطنين في المنطقة العربية وتقاليدهم ومشاعرهم وعقليتهم ونفسيتهم وآمالهم إلا بالقرآن الكريم والسنة المشرفة، فهما اللذان وحّدا مشاعر الناس، وهما اللذان أوجدا آمالاً واحدة، وأوجدا عقلية واحدة، وأوجدا نفسية واحدة، وأوجدا تطلعات واحدة،

وأوجدا أذواقاً واحدة، وأوجدا أشواقاً واحدة إلخ...[1] إننا لا نستطيع أن نفسّر تلك الأمور إلا بالإسلام، لأن الإسلام دخل كل شعبة من شعب الحياة, وكل قضية من قضايا المجتمع والسؤال الذي يرد هو: لماذا استبعد الحصري الدين من تكوين الأمم بشكل عام؟ وبماذا دلل الحصري على عدم استطاعة الدين الإسلامي تكوين أمتنا بشكل خاص؟ ولماذا عارض العلماء المسلمون فكرة القومية العربية حسب رأي الحصري؟ هذا ما سنستعرضه في الفقرات التالية.

(1) سنناقش عوامل تكوين الأمة الإسلامية في فقرة تالية من هذا الفصل.



لماذا لا تكوّن الأديان أمماً في رأي الحصري ؟

يؤكد الحصري أهمية الدين ويعلن صراحة أن الدين، بعد اللغة والتاريخ، أهم العوامل التي تؤثر في تكوين الأمم، وأن تأثير الدين في هذا المضمار قد يقوي عاملي اللغة والتاريخ، وقد يضعفهما، يقول الحصري: "لأن الدين يولّد نوعاً من "الوحدة" في شعور الأفراد الذين ينتمون إليه ويثير في نفوسهم بعض العواطف والنزعات الخاصة التي تؤثر في أعمالهم تأثيراً شديداً، فالدين يعتبر من هذه الوجهة، من أهم الروابط الاجتماعية التي تربط الأفراد بعضهم ببعض، وتؤثر في سير السياسة والتاريخ"[1] ويقرر الحصري أن تأثير الدين في تسيير السياسة والتاريخ وتكوين القومية والوطنية يختلف باختلاف الأديان من جهة، وباختلاف العصور من جهة أخرى.

ويلاحظ الحصري أن الأديان تنقسم إلى قسمين أساسيين من الوجهة الاجتماعية: الأديان القومية والأديان العالمية.

---

(1) ساطع الحصري، آراء وأحاديث في الوطنية والقومية، ص23.



الأديان القومية هي أديان خاصة بقوم أو بشعب أو بمدينة معينة كالديانة الاسرائيلية وكالأديان الوثنية القديمة. "ومن الطبيعي أن الرابطة التي تتولّد منها تنضم إلى تأثير اللغة والتاريخ، وتقوي الروابط التي تربط الأفراد بعضهم ببعض" [1].

أما الأديان العالمية فهي غير مختصة بشعب من الشعوب أو بأمة من الأمم. ولكن هل أوجدت الأديان العالمية، وأخصها الإسلام والمسيحية، رابطة أقوى وأعم من رابطة القومية؟ التاريخ يشهد، حسب قول الحصري، على أنها لم تنجح، فالأديان العالمية لم تستطع أن تمزج الأقوام وأن تزيل الفوارق بينها إلا بقدر ما نجحت في نشر لغة من اللغات وفي تبديل حدود القوميات. مما يعني أن العلاقة بين الدين العالمي والقوميات تمر عبر اللغات. وهذا المرور يساعد على إبراز دور اللغة في الدين بقدر ما يساعد على إبراز دور الدين في الحياة القومية [2].

---

(1) المرجع السابق، ص23-24 .

(2) المرجع السابق، ص24 .

ويرى الحصري أن الرابطة الدينية لا تكفي وحدها لتكوين القومية فيقول: "الرابطة الدينية وحدها لا تكفي لتكوين القومية، كما أن تأثيرها في تسيير السياسة لا يبقى متغلباً على تأثير اللغة والتاريخ.

إن هذا التأثير يشتد ويتراخى، يتقوى أو يتلاشى، حسب تطور علاقة الدين باللغة، ويبقى أمراً ثانوياً في تكوين القوميات بالنسبة إلى تأثير اللغة والتاريخ" [1].

لاشك أن حديث الحصري عن الأديان العالمية يمكن أن ينطبق على الدين المسيحي ولا ينطبق على الدين الإسلامي، وذلك لأن الأمم الأوروبية المعاصرة كالأمة الفرنسية، والأمة الإنكليزية، والأمة الهولندية إلخ... لم تتكون إلا بعد ما ثارت المجتمعات الأوروبية على الدين المسيحي وانعتقت من سيطرة الكنيسة، وأبعدت تأثيرات الكهنة عنها، في حين أن الدين الإسلامي استطاع أن يكوّن أمة وأن يمزج بين كل الشعوب

(1) المرجع السابق، ص41.



والأجناس في حضارته وهذا ما تدل عليه وقائع الحياة الاجتماعية والسياسية والعسكرية في الخلافة الإسلامية، كما يدل عليه كل علم من علوم الثقافة الإسلامية: كالفقه، والتاريخ، والجغرافيا، والطب، والفيزياء إلخ... وهذا ما سنفصل الحديث عنه في باب مستقل.

لماذا لا يقوى الدين الإسلامي على تكوين أمة حسب زعم الحصري ؟

طرح الحصري في بعض كتاباته الشعوبية قديماً وقيام بعض المنازعات بين الترك والعرب في القرن التاسع عشر حديثاً دليلين على عدم صلاحية الدين الإسلامي لأن يكون عنصراً رئيسياً في تكوين الأمة، أما الشعوبية فهي تدل على موقف فئة من رعايا الخلافة الإسلامية نحو الأمة الإسلامية لكن هذا لا ينفي أن بقية الأمة كانت موحدة في عقائدها وأفكارها وعاداتها وتقاليدها وأخلاقها وثقافتها وحضارتها ولغتها وتاريخها وأرضها وإرادتها التي تستمدها من الدين الإسلامي، أما فيما يتعلق ببعض المنازعات بين العرب والترك فهذا أمر طبيعي في كل مجتمع حتى ولو كان عربياً كله أو تركياً كله، وكانت تلك المنازعات تجد أُطُراً لحلّها كما

حدث في الاتفاق الأخير بين هيئة الاتحاد والترقي التركية وبين هيئة الشبيبة العربية غداة الحرب العالمية الأولى والذي نص على أداء العرب للخدمة العسكرية الإجبارية في ولاياتهم، وزيادة نسبة المسؤولين العرب في الدوائر العليا، وفي إصلاح إدارة الولايات وفق ما يقتضيه نظام اللامركزية إلخ... ولكن هذا لا ينفي دور الدين الإسلامي في إيجاد لحمة بين العرب والأتراك خلال تعايشهم مع بعضهم لقرون سابقة، ويؤكد ذلك اعتراف ساطع الحصري في كتابه السابق "محاضرات في نشوء القومية" أن السواد الأعظم من العرب كان مرتبطاً بالدولة العثمانية، متكلاً عليها، مستسلماً لها، ومعتبراً الخلافة ممثلاً له.

لماذا عارض العلماء المسلمون فكرة القومية العربية حسب ادعاء الحصري ؟

ثم يورد الحصري الأسباب التي دعت علماء الدين المسلمين إلى معارضة فكرة القومية العربية من أساسها فيحددها بثلاثة هي:

1- لأنها في رأيهم تخالف أحكام الديانة الإسلامية.

2- لأن إطاعة أوامر الخليفة واجب على المسلمين.

3- لأن الوحدة العربية تعارض الوحدة الإسلامية.

يعرض الحصري رأي علماء الدين الإسلامي في النقطة الأولى فيرى أنها تستند إلى الأحاديث النبوية التي نصت على نبذ العصبية، وقالت بعدم تفضيل العربي على العجمي وذلك استناداً إلى قوله ﷺ : "ليس منا من دعا إلى عصبية"، و"لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى". يقول الحصري إن أنصار الفكرة القومية قد ردوا على ذلك بقولهم: "إن المقصود من العصبية المذكورة في الأحاديث النبوية هو العصبية الجاهلية، أي العصبية القبلية، وأما الفكرة القومية فتختلف عن ذلك كل الاختلاف. كما أن عدم التفضيل لا يعني عدم التمييز، ومما يبرهن على ذلك أن الأحاديث النبوية قد خصت بالذكر اللغة العربية بمناسبات شتى".

ومع كل ذلك يضيف الحصري: "فإن آراء المعارضين للفكرة القومية بناء على حجج دينية ظلت تسيطر على أذهان الكثيرين

مدة طويلة، وبذلك أعاقت كثيراً نشوء الفكرة القومية في البلاد العربية" [1].

إن خلاف علماء الدين الإسلامي مع دعاة الفكرة القومية العربية ليس لأنها تدعو إلى العصبية أو على تحديد مضمون العصبية، لكن خلافهم مع القومية العربية لأنها طرحت نفسها كايديولوجيا تحل بديلاً عن الدين الإسلامي، وطرحت نفسها كرابطة تحل بديلاً عن الإخاء الإسلامي، وفي تقديري أن علماء الدين الإسلامي أول من يفقه التمايز بين الأجناس والأعراق والشعوب، لأنهم يعتبرونها آية من آيات الله، فالقرآن الكريم علمهم هذه الحقيقة حيث قال تعالى: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ (الحجرات،13)، وقال تعالى: ﴿**ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين**﴾ (الروم،22)، وفي تقديري أن علماء الدين الإسلامي أول من يحترم جنس العرب ولغتهم، ويؤكد ذلك الاحترام المكانة التي احتلها

(1) الحصري، ما هي القومية؟، ص200 .

العرب لدى الشعوب الأخرى على مدار التاريخ من جهة، والإقبال على تعلم اللغة العربية من قبل الشعوب الأخرى من جهة ثانية.

أما بالنسبة للنقطة الثانية، فإن الحصري يورد بعض الآراء التي تعتبر عدم إطاعة أوامر الخليفة كفراً ومنها رأي الزعيم المصري محمد فريد، ويرد بأن الكتاب لا يتضمن أي نص يدل على ذلك من قريب أو بعيد، ثم أن الخلفاء مهما توافرت فيهم شروط الخلافة ومزاياها، لا يكونون معصومين من الخطأ، فيحق للمؤمن بهذا الاعتبار، أن ينتقد أوامر الخليفة، أو يخالفها إذا رأى فيها ما يخالف العقل والمنطق والشرع الشريف.

يوضح الكلام السابق جهل الحصري لبعض أحكام الشرع البديهية وهي وجوب طاعة الإمام الأعظم ودليل ذلك قوله تعالى:﴿**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾ (النساء،59) وواضح أن الأمر الوارد في الآية السابقة للوجوب، وقد أوضح الرسول أن دم المسلم معصوم إلا في ثلاث حالات هي: "الزاني الثيب، والنفس بالنفس، والمفارق للجماعة"، أما قوله عن الخلفاء المسلمين بأنهم ليسوا معصومين عن الخطأ، فهذا صحيح وهذا ما

يقول به المسلمون على مدار تاريخهم، ومن الواجب الشرعي النصح لهم وانتقادهم، لكن هذا شيء والخروج عليهم شيء آخر، فالمحرّم هو الخروج عليهم وتفريق أمر المسلمين، أما إبداء الرأي وعرض وجهات النظر في أمور الأمة فهذا أمر مندوب بإجماع الآراء، وتجب الطاعة لولي الأمر إلا في حالة واحدة هي مخالفة أوامره للشرع إذ قال الرسول ﷺ: "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق".

أما بالنسبة للنقطة الثالثة فقد عارض بعض العلماء الوحدة العربية لأنهم رأوا فيها هدماً لشيء موجود وهو الوحدة الإسلامية، كما استشعروا فيها إيقاظاً للفتنة بين الأجناس التي تكوّن الخلافة العثمانية ومنها العرب والترك. وبالفعل هذا ما انتهت إليه الدعوة القومية عندما أدت إلى اقتتال العرب والأتراك، وأدت إلى دق إسفين من الكراهية والأحقاد بينهما.

❋ ❋ ❋

استعرضنا فيما سبق بعض آراء الحصري حول الأديان بشكل عام والدين الإسلامي بشكل خاص، وقد وجدنا أن الحصري يقول بأن الأمة تقوم على عنصري اللغة والتاريخ متابعة للنظرية الألمانية في نشأة الأمة، ولكن الحصري لم يطبق لنا في كل ما كتب هذه النظرية على أمتنا الإسلامية [1]، فلم يبين لنا كيف كوّن عاملا اللغة والتاريخ الوحدة الثقافية، ولا كيف شكلا الوحدة

(1) الملفت للنظر والمؤسف في الوقت نفسه أن الفكر القومي العربي لم يحدث أي تطوير في نظريته حول نشوء الأمة، وبقي يعتبر أن الأمة تقوم على عنصري اللغة والتاريخ، وبقي يستبعد الدين الإسلامي من أي دور أساسي في تكوين الأمة، ويمكن أن نمثل على ذلك بحركة القوميين العرب ذات النشأة المتأخرة نسبياً والتي كانت في الخمسينيات، فهي بدلاً من أن تراجع موقف السابقين من عوامل تكوين الأمة، لم تقم بشيء من ذلك، بل غالت في التوجّه القومي واعتبرت شعوباً كالفراعنة والفينيقيين والكلدانيين والآشوريين والبرابرة أجزاء من الأمة العربية، والحقيقة الواضحة التي لا مراء فيها هي أن هذه الشعوب ليست لها أية علاقة بالأمة العربية مهما كانت التبريرات التي طرحتها حركة القوميين العرب من مثل الدور غير الواضح للتكوين القومي العربي.

النفسية أي وحدة العواطف والمشاعر والآلام، ولا كيف أدّيا إلى تمازج الأجناس وقبولها التعايش مع بعضها بعض، ولا كيف توصلا إلى وحدة العادات والتقاليد إلخ... لم يبين الحصري شيئاً من هذا ولن يستطيع أن يبين من ذلك شيئاً، لأن الأمة التي يتحدث عنها الحصري لم تتكون من خلال عاملي اللغة والتاريخ، بل كوّنها الإسلام [1]. وسأجتهد أن أوضح في الفقرة القادمة كيف كوّن القرآن الكريم والسنة المشرفة الوحدة الثقافية، والوحدة النفسية، ووحدة العادات والتقاليد، ووحدة الآمال والآلام، والوعي بالشخصية المتميزة، وكيف كوّنا – أيضاً – وحدة اللغة، ووحدة التاريخ إلخ... وهما العاملان اللذان يربط الحصري بهما قيام الأمة، كما رأينا في تحليلنا لمضمون القومية العربية.

---

(1) إن اعتبار المفكرين القوميين أن الأمة تقوم على عاملي اللغة والتاريخ، وإنكارهم دور الإسلام في بناء الأمة جعلهم لا يستطيعون أن يشخصوا أمراض الأمة ولا يستطيعون أن يساهموا في علاجها، لأنها كلها مرتبطة بالإسلام، من مثل السلبية التي يعاني منها البناء النفسي للمسلم المعاصر، ومن مثل ضمور الجانب الجماعي في حياة المسلم المعاصر إلخ...

دور القرآن الكريم والسنة المشرفة في بناء الأمة الإسلامية

مال المفكرون القوميون العرب وأبرزهم ساطع الحصري إلى النظرية الألمانية في تشكيل الأمة[1]، فاعتبروا أن عاملي اللغة والتاريخ هما اللذان كوّنا هذه الأمة التي أطلقوا عليها اسم "الأمة

---

(1) اعتبرت الموسوعات السياسية أن الأمة تأتي حصيلة تفاعل نوعين من العوامل: الأولى: موضوعية: مثل اللغة، والتاريخ والجنس الواحد، والإقليم الواحد إلخ... الثاني: عوامل ذاتية: وعي الأفراد بأن لهم شخصية مميزة ومنفصلة تدفعهم إلى التعبير التنظيمي عن هذه الشخصية المميزة. وقد جاء إصرار المفكرين الألمان على اعتبار عاملي اللغة والتاريخ على أنهما الأصل في قيام الأمم من قبيل تعميم حالة خاصة على كل أمم الأرض، وهذا مبالغ فيه ومجانب للصواب، وسأعتبر كل العوامل السابقة التي أشارت إليها الموسوعات السياسية سواء الموضوعية أم الذاتية عوامل في بناء الأمة، وسأبين كيفية ارتباطها بالقرآن والسنة اللذين أرى أنهما الأصل في بناء أمتنا الإسلامية. (انظر "موسوعة السياسة" لعبد الوهاب الكيالي،و "موسوعة العلوم السياسية" إصدار جامعة الكويت).

العربية"، لكنهم لم يبينوا لنا كيفية بناء عاملي اللغة والتاريخ للوحدة الثقافية، ولوحدة العادات والتقاليد، ولوحدة البناء النفسي إلخ...، ولن يستطيعوا ذلك كما ذكرت سابقاً، لأن هذه الأمة بناها عاملان آخران هما: القرآن والسنة، وهما اللذان يفسران الوحدة الثقافية، والبناء النفسي المشترك، والعادات والتقاليد الواحدة، والتآلف القائم إلخ... وهذا ما سنوضحه في الصفحات القادمة.

أولاً: الوحدة الثقافية :

تتجلى الوحدة الثقافية بالتوحيد الذي يعني إيمان معظم أفراد الأمة بأن هناك رباً خالقاً لهذا الكون، وأن هذا الرب منزه عن الشبيه والمثيل والولد، وأبرز مقتضيات التوحيد عبادة هذا الإله وحده سبحانه وتعالى، وعدم الإشراك به شيئاً، ولا يقتصر مفهوم العبادة في الدين الإسلامي على الصلاة والصيام والحج إلخ...، بل يتسع ليشمل كل عمل دنيوي شريطة أن يترافق بنية التوجه إلى الله – تعالى–، ويدل على ذلك قول الرسول ﷺ: "إن في بضع أحدكم صدقة" قالوا: "أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر" قال: "أرأيتم لو وضعها في محرم أليس

عليه وزر؟ كذلك إن وضعها في حلال كان له أجر" (وراه مسلم). وقد أدى هذا الاتساع في مفهوم العبادة لتشمل كل الأعمال الدنيوية إلى اتساع مساحة العمران لدى الأمة الإسلامية، وإلى غياب الثنائية القائمة على المقدس والمدنّس التي أدت إلى تأزّم الحضارة الغربية في القرون الوسطى ثم انفجارها.

تتجلى تلك الوحدة الثقافية كذلك في انتشار الثقافة الفقهية التي لدى عموم أفراد الأمة التي تقسم الأعمال إلى ركن وفرض وواجب وحلال وحرام ومستحب ومباح ومندوب إلخ...

تتجلى تلك الوحدة الثقافية في تسليم أفراد الأمة بأن هناك يوماً آخر، وسيكون في هذا اليوم الآخر ابتعاث للناس من قبورهم، ثم محاسبتهم على أعمالهم التي أدوها في الدنيا، وسيكون المصير إما إلى الجنة وإما إلى النار، لذلك يجب أن يكون الهدف هو الفوز بالجنة، والصبر على كل بلاء يصيب المسلم في الحياة الدنيا من أجل الفوز بالآخرة.

وتتجلى تلك الوحدة الثقافية في التسليم بأن القرآن كلام الله والذي يحتوي على الحق الكامل في كل أمور الدنيا والآخرة، ومن

هنا جاء الاهتمام به، والحرص على تعليمه للأولاد في الكتاتيب، وترافق ذلك مع طقوس احتفالية متشابهة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، تعبر عن الفرح بذلك الحفظ للقرآن الكريم.

وتتجلى الوحدة الثقافية في كون القرآن الكريم أصل العلوم جميعها فكنت تجد العالم المسلم عالماً بالعلوم الشرعية كالقرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة والعلوم المرتبطة بهما، وعالماً بالعلوم الدنيوية كالفلك والرياضيات والجبر والميكانيكا وغيرها.

وتتجلى الوحدة الثقافية في كون الجوامع والمساجد في كل العالم الإسلامي مركزاً للتعليم بمختلف مستوياته الابتدائية والمتوسطة والعليا ومختلف أنواعه الدينية والدنيوية.

ثانياً: وحدة الأجناس والأعراق والقبائل :

اعتبر الإسلام أن الله – سبحانه وتعالى – رب العالمين، وليس رب شعب بعينه فقال تعالى: ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ (الفاتحة،2)، واعتبر الإسلام كذلك أن القرآن ذكر للعالمين فقال تعالى: ﴿**إنْ هو إلا ذِكْرٌ للعالمين**﴾ (التكوير،27)، واعتبر الإسلام أخوة الإيمان هي التي تجمع بين المؤمنين من كل الأجناس والأعراق فقال تعالى: ﴿**إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم**﴾ (الحجرات،10)، واعتبر الإسلام أن توزع الناس إلى أجناس وقبائل وأعراق يجب أن لا يكون حائلاً بينهم وبين تعارفهم وتعاونهم فقال تعالى: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ (الحجرات،13)، وقد حقق الإسلام تلك الوحدة بين الأجناس والأعراق والقبائل في أرض الواقع، فتجد أن القيادات السياسية لم تبق محصورة في العرب بحال من الأحوال، بل شاركت فيها كل الأجناس فتجد أن الخلافة وهو أعلى منصب في القيادات الإسلامية لم يبق محصوراً بالعرب بل شاركت فيها الأجناس الأخرى وأبرزهم الأتراك

العثمانيون الذي احتلوا منصب الإمامة العظمى بدءاً من 1518م بعد دخول السلطان سليم مصر وأخذه الخلافة من آخر خليفة عباسي في القاهرة، وكذلك تجد منصب الوزارات فقد احتل منصبها رجال من كل الأعراق والأجناس، فتجد في الفترة العباسية العامة وزراء فرساً وتركاً منهم البرامكة والبويهيون والسلاجقة إلخ... وتجد في الفترة العثمانية وزراء أتراكاً وبلغاراً وشراكسة وألباناً إلخ...

أما منصب الوالي فقد احتله رجال من كل الأعراق والأجناس أيضاً، فلو وقفنا عند فترة المماليك واستعرضنا جنسيات الذين تولّوا قيادة الدول العربية في تلك الفترة لوجدناها قاربت الثلاثين جنسية مختلفة منها الجنسية الشركسية والكردية والتركية إلخ... وإحداها كانت الجنسية الألمانية.

أما الجيوش فقد ساهمت مختلف الأجناس فيها، وأصبح العرق التركي هو العنصر الغالب فيها عندما استجلبهم المعتصم وبنى لهم مدينة سامراء، وكان ذلك مرتبطاً بتغيير العقيدة القتالية من اعتماد نظام الكراديس إلى اعتماد نظام الكر والفرّ الذي يعتمد على الفرسان الذين يرمون خصمهم بالنبال أثناء الهجوم

وأثناء الدفاع، وساهمت مختلف الأجناس والقبائل والشعوب في توسيع رقعة انتشار الإسلام، أو في الدفاع عن البلاد الإسلامية نذكر منهم في هذا المجال: الطاهريين، البويهيين، السلاجقة، الأكراد، الزنكيين، التركمان إلخ... وبرزت قيادات من مختلف الأعراق والأجناس والشعوب من أمثال طغرل بك السلجوقي، نور الدين الزنكي، عماد الدين الزنكي، صلاح الدين الأيوبي، قطز، الظاهر بيبرس، يوسف بن تاشفين إلخ...

أما العلوم فقد أبدع فيها علماء من كل الجنسيات في كل فروع العلوم ويكفي أن نذكر سيبويه واضع "الكتاب" أشهر كتاب في النحو هو فارسي، وأن الخليل بن أحمد الفراهيدي واضع علم العروض فارسي، وأن ابن سينا واضع "القانون" أشهر كتاب في الطب هو فارسي، وأن مخترع علم الجبر محمد بن موسى الخوارزمي هو من خوارزم إلخ... وإذا أردنا أن نستعرض أسماء في مختلف مجالات العلوم الإسلامية كاللغة وعلم أصول الفقه وعلم مصطلح الحديث وعلم الترجمة والأدب والشعر فسنجد آلاف الأسماء من

مختلف الجنسيات العربية والفارسية والهندية والتركية التي ساهمت في الإبداع في تلك الفنون والتي لا مجال لحصرها.

ثالثاً: وحدة العواطف والتكوين النفسي المشترك :

لقد أنشأ الإسلام تكويناً نفسياً مشتركاً بين أفراد الأمة الإسلامية وأبرز معالم هذا التكوين النفسي المشترك يقوم على تعظيم الله سبحانه والخضوع له، لأنه الرب القادر الخالق القوي المنعم الوهاب، ويتحقق ذلك بإقامة الصلاة والركوع والسجود، ويتحقق ذلك أيضاً بإقامة الشعائر المفروضة كالصيام والحج والزكاة.

ومن معالم هذا التكوين النفسي المشترك حب الرسول ﷺ، ويتحقق ذلك باتباع سنته في مجال الطعام والشراب والزواج والكلام والمعاشرة واللباس إلخ...

ومن معالم هذا التكوين النفسي المشترك تعظيم القرآن وحبه والأنس بآياته وسوره، ويتحقق ذلك بالاهتمام بتلاوته وحفظه وبخاصة في شهر رمضان حيث يعتبر هذا الشهر شهر القرآن الكريم.

ومن معالم هذا التكوين النفسي المشترك الخوف من النار ورجاء الجنة، ويتحقق ذلك بالحرص على فرائض الإسلام واتباع سنة الرسول ﷺ ، وإنفاق الأموال والتصدق بها، والإقدام على الاستشهاد في سبيل الله.

رابعاً: وحدة اللغة :

لقد كانت معجزة الرسول الأولى والكبرى هي القرآن الكريم، وبين الله -تعالى- أنه لن يستطيع أن يأتي أحد بمثل هذا القرآن فقال تعالى: ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً**﴾ (الإسراء،88)، وقد طلب الله -تعالى- من محمد ﷺ أن أن يتحدى المشركين على أن يأتوا بمثل القرآن فقال تعالى: ﴿**فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين**﴾ (الطور،34)، ثم طلب -تعالى- من محمد ﷺ أن يتحداهم بأن يأتوا بعشر سور مفتريات فقال تعالى: ﴿**أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين**﴾ (هود،13)، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة فقال تعالى: ﴿**وإن كنتم في ريب مما**

نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ (البقرة،23)، وبيّن الله تعالى في مواضع أخرى من القرآن الكريم أن هذا القرآن الكريم عربي فقال تعالى: ﴿**إنّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون**﴾ (يوسف،2)، وقال أيضاً: ﴿**إنّا أنزلناه قرآناً عربياً**﴾ (الرعد،37)، وبيّن الله في مواضع أخرى أن القرآن عربي البيان فقال تعالى: ﴿**نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين .بلسان عربي مبين**﴾(الشعراء،193-195)، وقال تعالى: ﴿**لسان الذين يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين**﴾ (النحل،103).

إن كون هذا القرآن الكريم معجزة الرسول الكبرى، وكونه يحتوي كلام الله، جعله في موقع الصدارة من اهتمامات المسلمين، لذلك اهتموا بلغته، وبحفظه، وبمعنى آياته، وببيانه، وتفسيره، ومناحي إعجازه... ولما كان ذلك كله مرتبطاً باللغة العربية جاء الاهتمام باللغة العربية، ولم تعد اللغة العربية لغة القرآن الكريم فحسب بل أصبحت لغة العبادة والصلاة والعلم، مما جعلها لغة الأمة الإسلامية، ثم أصبحت لغة الحضارة الإسلامية، وانتقل

تأثيرها إلى لغات الأقوام التي دخلت الإسلام، فأصبح الحرف العربي هو الذي تكتب به اللغة التركية واللغة الفارسية واللغة الهندية إلخ...، ودخلت كثير من ألفاظ اللغة العربية إلى لغات المسلمين الأخرى، كما أصبحت اللغة العربية هي لغة التفاهم بين كل شعوب الأمة الإسلامية.

ما أثر الدين الإسلامي في عامل اللغة العربية كعامل من عوامل بناء أمتنا؟ من الواضح أن القرآن الكريم هو الذي حفظ اللغة العربية، فقد كانت هناك عدة لهجات عربية في الجزيرة العربية قبل نزول القرآن الكريم، وكان يمكن أن تتطور كل لهجة لتكون لغة مستقلة بالتالي كان يمكن أن تنشأ عدة لغات في الجزيرة العربية نتيجة وجود اللهجات المختلفة للقبائل، لكن القرآن الكريم عندما كتب بلسان قريش، جعل الديمومة والهيمنة لهذه اللهجة على غيرها من اللهجات مما أنشأ لغة عربية واحدة وقضى على إمكانية نشوء عدة لغات عربية، وقد أكد عثمان –رضي الله عنه– هذا المعنى عندما قال للرجال الذين نسخوا عدة نسخ من المصحف الذي كان عند حفصة بنت عمر زوج الرسول

ﷺ وأرسلها إلى مختلف الأمصار، عندما قال لهم: "إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنه إنما نزل بلسانهم" [1].

ثم إن الرعاية التي رعاها المسلمون للعربية لغة القرآن الكريم كانت انطلاقاً من ظروف دينية، فعندما وضع أبو الأسود الدؤلي قواعد النحو، وأتم ذلك سيبيويه في مصنفه "الكتاب"، وعندما نقّط حروف العربية وشكّلها كل من أبي الأسود الدؤلي ويحيى بن يعمر ونصر بن عاصم الليثي، وعندما وضع الخليل بن أحمد الفراهيدي أصول معاجم اللغة، وعندما جمع العلماء مفردات العربية ومعانيها في معاجم لغوية، إنما قاموا بكل هاتيك الأعمال من أجل خدمة القرآن الكريم من أن يدخله التحريف واللحن، ومن أجل خدمة آيات القرآن الكريم أن تفهم على الوجه الصحيح. ومما يؤكد الدافع الديني وراء تلك الخدمات الجلّى التي قدمها أولئك الرجال النوابغ أن قسماً كبيراً منهم ليسوا عرباً وليس

(**1**) صحيح البخاري، فضائل القرآن، الباب الثاني والثالث.

لسانهم العربية، إنما اهتموا بالعربية وأفرغوا جهودهم للمحافظة عليها وضبط ألفاظها انطلاقاً من دينهم وإسلامهم.

خامساً: وحدة التاريخ :

ارتبط تاريخ الأمة الإسلامية بالإسلام بشكل كامل، فقد كانت وقائع نشأة الأمة الإسلامية مرتبطة بالصراع مع مشركي مكة والمدينة حول حقائق الإسلام، ثم ارتبط تاريخ الأمة الإسلامية في عهد الرسول ﷺ بحروب مع مشركي الجزيرة العربية من أجل نشر الإسلام في الجزيرة العربية، ثم ارتبط بالفتوحات الكبيرة في عهد الخلفاء الراشدين من أجل نشر الإسلام في الدول المجاورة فكانت معارك اليرموك والقادسية ونهاوند وفتح مصر إلخ...، ثم ارتبط تاريخ الأمة الإسلامية في عهد الدولة الأموية بالصراع مع الدولة الرومانية من جهة وبالتوسع من جهة الشرق باتجاه الهند ومن جهة الغرب باتجاه الأندلس من أجل نشر الإسلام وتوسيع رقعة خلافته، ثم ارتبط تاريخ الأمة الإسلامية في عهد الدولة العباسية في جانب كبير منه في مواجهة الحملات الصليبية التي استهدفت اقتلاع الإسلام وإعادة السيطرة المسيحية على بلاد

الشام بشكل عام وعلىالقدس بشكل خاص، لكن هذه الحملات فشلت بعد قتال استمر قرنين من الزمان اشتركت فيه كل دول وشعوب أوروبا، وقد ارتبط تاريخ الأمة الإسلامية في عهد الدولة المملوكية في الدفاع عن الإسلام في مواجهة الغزوة المغولية التي هدمت الجانب الشرقي من الخلافة الإسلامية، وقد ارتبط تاريخ الأمة الإسلامية في الدولة العثمانية في بدايته بنشر الإسلام في أوروبا وفتح القسطنطينية عام 1453م ثم ارتبط بالتوجه إلى الدول العربية وحكمها وإزالة حكم المماليك، وكان السبب الرئيسي في ذلك مواجهة خطر البرتغاليين الذين تنامت قوتهم، ودخلوا البحر الأحمر عن طريق رأس الرجاء الصالح من أجل تقويض كيان المسلمين في الجزيرة العربية.

هذا جانب عن الارتباط السياسي بين الدول التي قامت على مدار التاريخ الماضي وبين الإسلام، أما بقية جوانب التاريخ كالناحية الاجتماعية والعلمية والفنية والاقتصادية فهي مرتبطة دون استثناء بالإسلام أشد الارتباط، ولو أخذنا مثالاً العلوم، لوجدنا أن العلوم الإسلامية المرتبطة بالقرآن والسنّة كاللغة العربية وعلوم القرآن

وعلوم الحديث كلها قامت لحفظ نصوص القرآن والحديث، ولفهم معناها، أما العلوم الأخرى كالفلك والجبر والرياضيات فنجد أن جانباً كبيراً منها مرتبط بالإسلام، فنجد أن علم الفلك وتقدمه قام من أجل تحديد قبلة المسجد، وتحديد أوقات الصلوات، ونجد أن علوم الجبر والرياضيات قامت من أجل المساعدة على حل مشاكل الميراث وتوزيع الإرث إلخ...، أما الأمور الفنية وأبرزها الخط العربي فيعود في جانب كبير منه إلى موقف الإسلام من التصوير والتمثيل وتركيزه على الجانب العملي، وبسبب أن المسلم لا يعيش أزمة وجودية كما يعيشها أفراد المجتمعات الأخرى [1].

---

(1) فصّلت الحديث عن العوامل التي أدت إلى ارتباط فنية الخط وجماليته بقيم الإسلام في كتاب سابق لي تحت عنوان "النكسة في بعدها الحضاري" فليعد إليه من شاء التوسع في دراسة هذه العوامل.

سادساً: وحدة العادات والتقاليد :

لقد ولّد الإسلام عادات وتقاليد متقاربة لدى أفراد الأمة الإسلامية، ويتضح ذلك في توجيه القرآن الكريم المسلمين إلى التوحيد والعبادة والتطهر واستهداف الحلال والابتعاد عن الحرام إلخ... كما قامت السنة المشرفة بدور كبير في تحقيق هذه الوحدة بتوجيه المسلمين إلى الاقتداء بالرسول ﷺ في مجال الإخلاق والأكل واللباس والبيع والشراء والإحسان والتضحية والصبر والرحمة والشجاعة والأفراح والأحزان إلخ... وقد قنّن الفقه كثيراً من هذه العادات.

سابعاً: وحدة الآمال والآلام :

لقد ولّد الإسلام آمالاً واحدة لدى المسلمين في أن يكونوا أعزاء أقوياء متمكنين في الأرض يؤدّون دوراً في هداية البشرية إلى عبادة الله والابتعاد عن الشرك، كما ولّد آلاماً واحدة عند وقوع أي اعتداء، لذلك نجد أن الأمة جميعها ساهمت في رد أبرز هجومين هددا وجود الإسلام نفسه وهما الحروب الصليبية والغزو المغولي، كما استطاعوا إيقاف الغزو الصليبي من جهة الغرب بعد

سقوط الأندلس، وبقي الإحساس بوحدة الآمال والآلام موجوداً حتى اللحظات الأخيرة من الخلافة العثمانية وهي في قمة ضعفها، فنجد أن المسلمين كانوا يهبّون لنجدة بعضهم عندما يحدث اعتداء أو احتلال لبعض أراضيهم، كما حدث عندما احتلت إيطاليا ليبيا قبل الحرب العالمية الأولى، وكما كان يهدد السلطان عبد الحميد بأنه سيطلب من المسلمين مقاطعة بريطانيا في حال عدم تجاوبها مع بعض مطالبه، وكان يعني بذلك مسلمي الهند الذين كانوا تحت الاحتلال البريطاني، وبالفعل كانت بريطانيا تتجاوب معه خشية تحريك مسلمي الهند ضدها.

ثامناً: وعي المسلمين بأن لهم شخصية مميزة :

وعى المسلمون بأن لهم شخصية مميزة في عقائدهم وفي عباداتهم وفي شعائرهم إلخ... ليس هذا فحسب بل وعى المسلمون بأن لهم رسالة يحملونها في الأرض وهي الشهادة على الناس ، وإنقاذهم من الظلمات إلى النور تحقيقاً لقول الله تعالى: ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً**﴾ (البقرة،143). وقد احتوت الآيات الكريمة

والأحاديث الشريفة تفصيلات كثيرة تدل المسلمين على كيفية تحقيق التميّز في شخصيتهم [1]، وتدلهم على كيفية تحقيق الرسالة المنوطة بهم، وبالفعل فقد نفّذ المسلمون تلك التوجيهات ومنها التي تدعوهم إلى مخالفة اليهود والنصارى والمشركين فقد قال الرسول ﷺ : "خالفوا المشركين ووفّروا اللحى وأحفوا الشوارب" (رواه البخاري). وعندما هاجر الرسول إلى المدينة وجد اليهود يصومون العاشر من محرّم فسأل عن ذلك فقيل له إنهم يصومونه شكراً لله على إنجاء موسى عليه السلام من فرعون فقال: "أنا أحق بموسى عليه السلام منهم، ولئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع والعاشر" (رواه أحمد ومسلم).

---

(1) لمزيد من الاطلاع على توجيه الإسلام المسلمين بأن يكونوا أمة متميزة في كل شؤونهم يمكن الرجوع إلى كتاب "اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم" لابن تيمية ففيه تفصيلات كثيرة عن هذا الأمر.



تاسعاً: وحدة الأرض :

أقام الرسول ﷺ نواة الدولة الإسلامية في المدينة ثم اتسعت حتى شملت الجزيرة العربية بكاملها قبل وفاته ﷺ ثم اتجه الخلفاء الراشدون إلى شمال الجزيرة العربية، وتقوضت أركان الدولة الفارسية والرومية بعد معركتي القادسية واليرموك في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم توسع المسلمون شرقاً وغرباً، فوصل المسلمون شرقاً إلى حدود الصين، وغرباً إلى الأندلس في نهاية عهد الخلافة الأموية، ثم توسع المسلمون في جنوبي شرقي آسيا وفي أواسط آسيا أثناء الخلافة العباسية، ثم فتح العثمانيون القسطنطينية وأدخلوا شرقي أوروبا في دار الإسلام، وطرقوا أبواب فيينا مرتين كانت الأخيرة في عام 1699م، ثم عادت الأرض الإسلامية وتقلّصت بعض الشيء، وخرجت من السيطرة الإسلامية بعض الأراضي مثل الأندلس ومعظم دول أوروبا ، لكن الإسلام أبقى الجزيرة العربية عريناً للأمة الإسلامية، وموئلاً أساسياً لها ، لذلك لم يقبل الرسول ﷺ من المشركين العرب إلا الإسلام وإلا فالقتال بينهم وبين المسلمين، ولذلك أمر الرسول ﷺ بإخلاء الجزيرة العربية من

أصحاب الديانات الأخرى كاليهود فقال: "لا يجتمع في جزيرة العرب دينان". وأمر بطرد اليهود من خيبر شمالي الجزيرة العربية، وقد حقق عمر بن الخطاب ﷺ ذلك فأمر بإخراجهم أثناء خلافته.

لقد خضعت الأرض الإسلامية ضمن "دار الإسلام" إلى توسع وتقلّص، لكن مع ذلك أبقت استراتيجية الإسلام أرض الجزيرة العربية ملاذاً أخيراً للإسلام في أسوأ الظروف وأشدها حلكة، وهذه إشارة من الإسلام جديرة بالانتباه إلى أهمية الأرض في كيان الأمة الإسلامية.

عاشراً : وحدة الدولة :

لقد أقام الرسول ﷺ دولته في المدينة، وجمع في شخصه القيادة الدينية والمدنية، وقام الخلفاء الراشدون بعده بنفس المهمة، واستمرت الدولة الواحدة قائمة في عهد الأمويين، ثم جاءت الخلافة العباسية، وبدأ الانشقاق في وحدة الدولة عندما أقام عبدالرحمن الداخل خلافة ثانية في الأندلس، ثم ازداد عدد الدول التي لا تخضع لسلطان الخليفة في بغداد، أو تخضع بصورة اسمية أو شكلية، واستمر الحال في العهدين التاليين: المملوكي

والعثماني، ولكن مما يخفف من وطأة هذا الانقسام هو التزام كل الحكومات بالشرع الإسلامي، وهذا ما جعل علماء الأمة يدعون جماهير المسلمين إلى طاعة هؤلاء الحكام طالما أنهم يحكمون بشرع الله، وهذا ما حقق وحدة الدولة من خلال وحدة المرجعية الدينية، وقلّل من مساوئ الانقسام ونتائجه.

❋ ❋ ❋

اتضح من العرض السابق أن الإسلام ذو دور أساسي في بناء الأمة ، والإسلام – وحده – يستطيع أن يفسر كل تجليّات الأمة، وتطورات مسيرتها، وعوامل مرضها، وكيفية إنهاضها إلخ...

لذلك عندما جاءت القيادات القومية، واعتبرت أن اللغة والتاريخ هما عاملا بناء هذه الأمة، أخطأت في فهم حقيقة هذه الأمة، وقد انبنى على هذا الخطأ في الفهم أخطاء في التعامل، وأبرزها: تغييب الدين الإسلامي من مركز التوجيه والتأثير والقرار

ليس هذا فحسب [1]، بل اعتبار الدين الإسلامي عدّواً للتقدم والحضارة، ورديفاً للتأخر والانحطاط، والاجتهاد في تغريب المجتمع حسب النموذج الأوروبي [2]، ومحاولة اقتلاعه من حياة الناس، لكنها فشلت في هذا، وكانت الثمرة هي الصحوة الإسلامية، فما

(**1**) إن إجراء مقارنة بسيطة بين القيادات القومية اليهودية والقيادات القومية العربية تبين أن القيادات القومية اليهودية احترمت الديانة اليهودية وجعلتها عاملاً أساسياً من عوامل بناء الأمة، في حين أن القيادات القومية العربية بكل أسف تنكرت للدين الإسلامي ولم تعتبره عاملاً أساسياً من عوامل بناء الأمة، وكان هذا الفرق في التعامل أحد أسباب نجاح القيادات الأولى وتعثر القيادات الثانية وفشلها.

(**2**) مرّت ايديولوجيا القومية العربية بمرحلتين: الأولى: ليبرالية، والثانية: اشتراكية، وكان الإسلام متهماً في المرحلتين، لكن وتيرة الاتهام ومستوى محاولات الاستئصال أصبحت أكثر ارتفاعاً في المرحلة الثانية التي بدأت في الستينات من القرن الماضي وهناك وقائع كثيرة تؤكد ذلك، لا مجال لاستعراضها والتفصيل فيها خشية التطويل من جهة، ومن أجل حصر الموضوع في المناقشة الفكرية والابتعاد عن الاستعراض التاريخي من جهة ثانية.

مظاهرها؟ وما أسبابها؟ هذا ما سنجد جوابه – عزيزي القارئ – في الفصل الثالث.

الفصل الثالث

الصحـــوة الإســلاميــة:

مظاهرها ، أسبابها ، محدودية فاعليتها

الصحوة الإسلامية

لم تستطع ايديولوجيا القومية العربية أن تفرض التغريب على الأمة، بل جاءت الصحوة الإسلامية في بداية السبعينات معبّرة عن فشل التغريب، والعودة إلى التدين، ونجاح الأمة في المحافظة على ذاتها وشخصيتها وعبرت عن ذلك بعدّة مظاهر، هي:

1- إعمار المساجد :

لقد كثر مرتادو المساجد، وبخاصة من الشباب، وزاد الإقبال على بناء المساجد في الدول الإسلامية وفي أوروبا وأمريكا.

2- زيادة الإقبال على الحجاب :

زاد إقبال النساء المسلمات على ارتداء الحجاب الشرعي في مختلف الأوساط: الشركات، والجامعات، والمدارس الثانوية، والدوائر الحكومية إلخ...

3- الفوز في الانتخابات المهنية والعمالية والاتحادات الطلابية والبرلمانية :

فاز الإسلاميون في كثير من الانتخابات، وسيطروا على كثير من النقابات المهنية كنقابة المهندسين، والأطباء، والمحامين إلخ... وتمكنوا من قيادة كثير من الاتحادات الطلابية في كثير من الجامعات من المغرب إلى مصر إلى تركيا إلى باكستان إلخ...، وخاضوا بعض الانتخابات البرلمانية وفازوا في بعضها كما وقع ذلك في اليمن والأردن ومصر والمغرب إلخ...

4- رواج الكتاب الإسلامي :

ثبت أن الكتاب الإسلامي أكثر الكتب رواجاً وذلك من خلال إحصائيات قامت بها بعض المؤسسات في معارض الكتب المختلفة.

5- قيادة العمل الخيري في البلدان العربية وآسيا وأفريقيا :

نشأت مؤسسات خيرية في معظم البلدان العربية والإسلامية وبخاصة في الخليج والسعودية، وقامت بإنشاء فروع لها في معظم



بلدان أفريقيا وآسيا، وساهمت هذه المؤسسات الخيرية في دفع غائلة الفقر والحرمان عن هذه الشعوب، فأقامت المشاريع الزراعية، وحفرت الآبار، وأسست بعض المشاريع الصناعية لإعالة بعض العائلات، وبنت المستشفيات والمستوصفات، وأسست بعض المدارس والجامعات للمساهمة في العملية التعليمية في تلك البلدان، كما أنشأت بعض الأوقاف التي تساهم في تغذية المشاريع السابقة.

6- الحضور الإعلامي الواسع :

زادت مساحة البرامج الدينية في الإذاعات والتلفازات مما زاد في الحضور الإعلامي للشخصيات الإسلامية، ومما زاد في حجم القضايا الدينية والتاريخية المطروحة، كما زادت عدد المجلات الإسلامية التي تتناول مختلف الموضوعات الإسلامية.

7- النجاح في إنشاء مؤسسات لا ربوية :

نجح الإسلاميون في إنشاء بنوك لا ربوية، وشركات لا ربوية، وقد استقطبت هذه البنوك والشركات قسماً كبيراً من الجماهير المسلمة التي سعت وراء التنمية الحلال، والربح الحلال، وقد

ضاربت هذه المؤسسات اللاربوية البنوك الربوية وأثّرت عليها، مما جعل الأخيرة تضغط على الحكومات من أجل عرقلة حركتها، وقد نجحت إلى درجة كبيرة في تحقيق هدفها لدى بعض الحكومات العربية والإسلامية.

8- ازدياد المطالبة بتحكيم الإسلام في كل شئون الحياة:

ازداد عدد المطالبين بتحكيم الإسلام في كل شؤون الحياة نتيجة الوعي بأن الإسلام دين ودولة، وأنه لا يكتمل الدين إلا بتحكيمه في كل شؤون الحياة، وأن انفصال الدين عن الدولة في الغرب جاء نتيجة ظروف تاريخية خاصة به أبرزها الخصومة بين الدين والعلم التي لم يعرفها الدين الإسلامي، بل كان الدين والعلم توأمين يعيشان جنباً إلى جنب في تاريخنا، وانبثقت كل العلوم الدنيوية في رحاب المسجد ومن الشريعة الدينية، كما اشتغل علماء الدين بعلوم الدنيا مستهدين بأوامر الدين الإسلامي، ومستفيدين من مظلته.



9- العـودة إلى الأصـــول :

تميزت الصحوة الإسلامية بأنها وضعت المسلم عبر سكة صحيحة فيما يتعلق بعدة أمور شرعية أبرزها: البعد عن التصوف، والبعد عن التعصب المذهبي، والبعد عن الأحاديث الضعيفة، وجعلته بالتالي يتمسك بالعقيدة الصحيحة، وبالحرص على السنة، والأخذ بالأحاديث الصحيحة، وقد جاء هذا التوجه حصيلة جهود عشرات العلماء في القرون السابقة من أمثال الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ومحمد رشيد رضا، والشيخ ناصر الدين الألباني إلخ....، لذلك نجد أنه راجت الكتابات والدراسات التي تصحح العقائد، وتصحح السنة، وتصحح الأحاديث.

10- مسـاهمـة الإسـلاميـين في الجـهـاد:

غاب الإسلاميون عن الساحة الجهادية في الخمسينات والستينات والسبعينات من القرن الماضي وبخاصة ساحة الجهاد الفلسطيني لعدة ظروف لا مجال للحديث عنها أو شرحها الآن، لكنهم عادوا إلى الظهور في عدة ساحات منها: ساحة الجهاد في أفغانستان، وفي الفليبين، وفي أرتيريا، وفي فلسطين ....، وأصبح لهم

دور بارز في الثمانينات والتسعينيات من القرن الماضي في الجهاد في قضية فلسطين، وهذا الدور أحد إفرازات الصحوة الإسلامية.

❋ ❋ ❋

بعد أن عرفنا مظاهر الصحوة الإسلامية، فما أسبابها؟ وما العوامل التي أدت إلى قيامها؟

أسباب قيام الصحوة الإسلامية

لم تقتصر الصحوة على بلد واحد أو منطقة واحدة، بل شملت بلداناً متعددة ذات ظروف تاريخية مختلفة تمتد من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، منها: تركيا، الأردن، مصر، فلسطين، تونس، الجزائر، السعودية، الكويت إلخ... وقد قامت في تواريخ متعددة، والأرجح أن تركيا كانت أسبق من غيرها في الصحوة كما كانت أسبق من غيرها في التغريب، ونحن سنجمع الأسباب التي ذكرها الدارسون كتعليل لهذه الظاهرة، وسنبيّن رأينا في صوابية كل منها.

1- نكسة حزيران 1967م :

ذكر بعض الدارسين أنّ الصحوة الإسلامية جاءت نتيجة هزيمة العرب في مواجهة اليهود سنة 1967م، وعلّلوا ذلك بأنّ الشعوب تلجأ إلى القيم الغيبية لمواجهة الانتكاسات وللتهرب من الواقع المرير، ومن الذي روّجوا لهذا التحليل حسين أحمد أمين في عدد من مقالاته. لكن هذا التعليل غير صحيح لأنّ هناك بلاداً قد

ظهرت فيها صحوة إسلامية ولا علاقة لها نهائياً بالنكسة مثل تركيا وتونس، ولكننا يمكن أن نقبل القول بأنّ نكسة حزيران 1967م كان لها دور في توقيت ظهور الصحوة وذلك لاضطرار الحكام إلى تخفيف قبضتهم عن الشعوب الإسلامية بسبب هزيمتهم أمام اليهود، واضطرارهم إلى السماح بهامش من الحرية مما جعل الشعوب تستفيد من هذا الهامش وتعبّر عن الحقيقة الكامنة في داخلها ووجدانها.

2- حاجة بعض الحكام لمواجهة التيارات اليسارية:

علّل بعض الدارسين اليساريين وجود الصحوة الإسلامية بأنها ثمرة إطلاق الحكام ليد الإسلاميين في العمل السياسي من أجل مواجهة الحركات اليسارية، وأشاروا بهذا الصدد إلى إطلاق أنور السادات يد الحركة الطلابية في مصر لمواجهة الشيوعيين واليساريين من أتباع جمال عبد الناصر في الجامعات المصرية بعد عام 1970م، وأشاروا كذلك إلى سماح بورقيبة للإسلاميين بالعمل في تونس من أجل الحد من نفوذ التيار الشيوعي هناك.

إنّ هـذا الكـلام الـذي يقولـه اليسـاريون قابـل للنقـاش، ولا يسـلّم بـه علـى إطلاقـه، ولكـن لنفـترض جـدلاً صـحة مـا يقولـه اليسـاريون، فهـذا يعـني أنّ الحكـام أرادوا الاسـتفادة مـن ظـاهرة موجودة، ولم يُوجدوا هذه الظاهرة، وهذا ما نريد أن نصل إليه وهو أنّ الصحوة الإسلامية حقيقة منبثقة عن واقع حياة المجتمع المسلم ومرتبطة به، وذات جذور وأصول بعيدة وليست من صنع الحكام.

3- الظروف الاقتصادية السيئة:

أشـار كثـير مـن الدارسـين وبالـذات الغـربيين إلى أنّ الصـحوة الإسلامية ثمرة الظروف الاقتصادية السيئة التي تمر بها بعض بلدان العـالم الإسـلامي، وأنّ القيـادات الإسـلامية تسـتغل الظـروف الاقتصادية السيئة للزج بالشباب في "أتون الأصولية"، ومما ينفـي زعـم أولئـك الدارسـين أنّ الصـحوة الإسـلامية لم يقتصـر انتشـارها على البلـدان الـتي تعـاني أزمـات اقتصـادية، بـل امتـد انتشـارها إلى البلـدان المسـتقرة والمزدهـرة اقتصـادياً مثـل الخلـيج العـربي بعامّـة والكويـت بخاصـة، وربمـا كـان العامـل الاقتصـادي سـبباً في تسـريع انتشارها لكنه لم يكن عاملاً أساسياً في إيجادها بحال من الأحوال.

4- الثورة الإيرانية:

عزا بعض الدارسين انبثاق الصحوة الإسلامية إلى قيام الثورة الإيرانية في طهران عام 1979م، وإلى تأثيرها الإعلامي في محيطها الإسلامي، لكن نسي أولئك الدارسون أنّ الثورة الإيرانية شيعية المذهب، لذلك فمن الصعب أن يكون لها تأثير في محيط سني المذهب وبخاصة إذا علمنا أنّ الصحوة الإسلامية قامت في بلاد سنية المذهب، وإذا كان لابد لنا من الإقرار بالتأثر والتأثير فهو أنّ الثورة الإيرانية حركت مشاعر المسلمين، وأذكت أملهم بإمكانية الانتصار، ودفعتهم إلى حلبة التنافس والتسابق مع إخوانهم الآخرين.

5- انتشار المد الأصولي:

رصد بعض الدارسين أصولية متنامية خلال الفترة الماضية على مستوى الكون لدى جميع الأديان اليهودية والكاثوليكية والهندوسية والبوذية إلخ... وعلّلوا تلك الظاهرة الأصولية بسقوط الاتحاد السوفييتي الذي يقوم على الإلحاد والذي هو خصم لكل الأديان، واعتبروا الصحوة الإسلامية جزءاً من تلك الظاهرة، لكن نسي الدارسون أنّ الصحوة الإسلامية غير الأصولية الإسلامية،

فلكل ظاهرة سماتها المستقلة المختلفة عن الأخرى، وإذا قبلنا التعليل السابق لظهور الأصولية الإسلامية فيجب أن نبحث عن تعليل آخر لظهور الصحوة الإسلامية طالما أنهما في حقيقة الأمر ظاهرتان متمايزتان مختلفتان.

6- ارتباط الصحوة بعالم واحد أو حزب معيّن:

ربط بعض الدارسين الصحوة الإسلامية بعالم واحد، أو بحزب معين، أو جماعة محدّدة، لكن هذا الربط بعيد عن الصواب بسبب أن الصحوة الإسلامية شملت معظم أنحاء العالم الإسلامي، وفي فترات محددة من منتصف القرن الماضي إلى نهايته، ولم يعرف العالم الإسلامي عالماً واحداً شمل نفوذه وأفكاره جميع أنحاء العالم الإسلامي، ولم يعرف العالم الإسلامي حزباً معيّناً شمل انتشاره العالم الإسلامي جميعه بسبب الحواجز الكثيفة التي فرضها الاستعمار بين أقطار العالم الإسلامي، فالحقيقة أن الصحوة جاءت ثمرة تفاعل بين الوحدة الثقافية المغروسة في كيان الأمة وبين جهود علماء مختلفين وجماعات وأحزاب متنوعة على امتداد العالم الإسلامي، ففي تركيا فشل التغريب الذي غرسه أتاتورك عندما

أعـادت الدولـة الأذان باللغـة العربيـة في خمسـينات القـرن الماضـي، وعندما سمح للمدارس الدينية بأن تمارس نشاطها، وسمح للمرأة بأن تلبس حجابها إلخ... وفي الجزائر فـازت جبهـة الإنقـاذ في انتخابات عام 1991-1992م بكل مقاعد البرلمان تقريباً مع أن تشكيلها تم قبـل سـنتين مـن تـاريخ الانتخابـات، ومـع أن زعيمهـا الـرئيس عبّاسي مدني لم يكن معروفاً من قبل إلا في نطاق محدود، ويؤكد المثلان في تركيا والجزائر بأن الصحوة الإسلامية لا يقف وراءها عالم واحد أو حزب واحد، بل عدد من العلماء والجماعات والأحزاب، وقس على ذلك بقية البلاد العربية والإسلامية.

والآن بعد أن فندنا الأسباب التي توهم بعض الدارسين أنها كانـت وراء الصـحوة الإسـلامية، فمـا أسـبابها الحقيقيـة إذن؟ ومـا ماهيتها؟ لكي نرد على السؤال السابق لابد من استعراض الظروف التاريخيـة والسياسـية والاجتماعيـة والفكريـة الـتي سـبقت الصـحوة الإسلامية.

كانـت الحضـارة الغربيـة هـو التحـدي الأكـبر الـذي واجـه الخلافـة العثمانيـة في القـرن التاسـع عشـر ومطلـع القـرن العشـرين،

وانتهى الصراع بسقوط الخلافة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى، وبتفكيك ولاياتها وسقوط معظمها في قبضة الانتدابين: البريطاني والفرنسي، وارتفعت أصوات تنادي بالتغريب من أجل التخلص من التخلف الحضاري ومن أجل اللحوق بالحضارة الغربية، وكان كمال أتاتورك أبرز من حمل لواء التغريب فألغى الخلافة وأعلن النظام العلماني الذي يقتضي فصل الدين عن الدولة نهائياً، وألغى الشريعة الإسلامية، وأعلن الأذان باللغة التركية، وكتب اللغة التركية بالحرف اللاتيني بعد أن كانت تكتب بالحرف العربي، وأوجب السفور وألغى كل التشريعات الإسلامية المتعلقة بالأسرة إلخ...

ذلك ما قام به كمال أتاتورك على الجانب التركي من الخلافة العثمانية، أما الجانب العربي فقد قادت ايديولوجيا القومية العربية الأمة فيه، واعتبرت اللغة والتاريخ عاملي تكوين الأمة العربية، وتنكّرت للدين الإسلامي ولم تعتبره عاملاً من عوامل تكوينها، وكان ساطع الحصري أبرز من رسخ تلك الايديولوجيا القومية في كل من العراق وسورية بعد أن احتل مراكز تربوية وعلمية راقية فيهما.

وكانت نتيجة المعطيات السابقة جميعها أنّ القيادات القومية العربية جعلت الحضارة الغربية قدوتها ومثالها، وشرعت في تغريب الإنسان والمجتمع العربيين، فأحلت الرابطة القومية محل الرابطة الدينية، ونقلت التشريعات الغربية وقوانينها في كل مجالات الحياة التجارية والزراعية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية إلخ... ولم تستثن من ذلك إلا قوانين محدودة تتعلق بالأحوال الشخصية كالزواج والطلاق، ونقلت النموذج السياسي الغربي دون أدنى تغيير أو مراعاة لأية ظروف خاصة، ونسخت النظام الاقتصادي الغربي القائم على النظام الربوي بكل شروره وآثامه، ونشرت الآداب والفنون الغربية من مسرح وسينما وتمثيل ورسم ونحت إلخ... وقد أدى كل ذلك إلى اصطراع عنيف بين النموذج الغربي وبين النموذج الحضاري التاريخي لأمتنا الذي عرفته لقرون طويلة.

أما مصر فقد كان صوت التغريب فيها بعد الحرب العالمية الأولى أعلى من صوته في مثيلاتها العربيات، فقد اعتبر حزب الوفد الذي قاد ثورة 1919م أنّ الشعب المصري أمة فرعونية مكتفية بذاتها، وقد دعا الدكتور طه حسين عميد الأدب العربي إثر

استقلال مصر عام 1936م في كتاب "مستقبل الثقافة في مصر" إلى أخذ الحضارة الغربية كاملة في كل مجال: حلوها ومرها، واعتبر ذلك الطريق الوحيد للرقي وللالتحاق بركب الحضارة البشرية، وقد شهدت مصر بين الحربين العالميتين معارك فكرية صاخبة كان القصد منها خلخلة البناء النفسي للشعب المصري وتهيئته للتغريب الكامل من مثل المعركة التي أثارها علي عبد الرازق في كتابه "الإسلام وأصول الحكم" نافياً وجود حكم يتطلبه الإسلام، ومما يلحق بتلك المعارك الفكرية الصارخة الدعوة إلى كتابة اللغة العربية بالأحرف اللاتينية وإلى تغيير قواعد النحو والإملاء والحجة في كل ذلك التيسير.

ثم جاء جمال عبد الناصر إلى الحكم في عام 1952م ونقل مصر من مرحلة القومية الفرعونية إلى القومية العربية، واعتمد في البداية طرح ساطع الحصري القومي العلماني، ثم انتقل عبد الناصر إلى المرحلة الاشتراكية في الستينات [1]، وقد استمرت مصر ماضية

(**1**) عندما نحا جمال عبد الناصر إلى الاشتراكية وجدنا أن المفردات الاشتراكية هي التي طغت، وأن النظريات الماركسية والشيوعية هي التي

في أمر التغريب ولكنّ تغريبها هذه المرة مستمد من الشق السوفييتي الاشتراكي، لذلك حكمت المجتمع التطبيقات الاشتراكية من مثل تأميم وسائل الإنتاج، وقيادة العمال والفلاحين، والصراع الطبقي، والعنف الثوري إلخ... ثم سارت عدة دول عربية على نهج مصر القومي الاشتراكي ومنها: السودان، والجزائر، اليمن، إلخ...

والسؤال الآن بعد هذا الاستعراض الموجز لمحاولات التغريب: ماذا كانت نتيجة محاولات القيادات القومية لتغريب بلادنا منذ الحرب العالمية الأولى؟ هل نجحت في ذلك؟ هل أصبحت قيم الغرب وعاداته وتقاليده ونظمه السياسية والاجتماعية والاقتصادية متجذرة في حياة الأمة وجزءاً من كيانها؟ لا لم تصبح بدليل الصحوة الإسلامية التي قامت في مختلف أنحاء العالم العربي من

سادت الساحة، ووجدنا أن المقولات القومية تراجعت، ووجدنا حركة القوميين العرب ذات النشأة القومية العربية الصرفة تحوّلت إلى حركة تلتزم الايديولوجيا الماركسية بشكل عنيف، فإن دل هذا على شيء فإنما يدل على فقر مضمون القومية العربية، وضآلة محتواها الثقافي، لذلك أمكن تجاوزها بسهولة.

تركيا إلى سورية إلى الأردن إلى مصر إلى تونس إلى الجزائر إلخ... والتي جاءت لتعلن فشل التيار القومي في تغريب الأمة، وقد استندت الصحوة الإسلامية في تفشيلها محاولة التغريب تلك إلى الوحدة الثقافية التي تمثّلت في مفاهيم مستمدة من أحكام الحلال والحرام والواجب والمندوب المطروحة في كتب الشريعة الإسلامية، وظهرت في تقاليد وعادات وأعراف مستندة إلى سيرة الرسول ﷺ ، وبانت في سلوكيات معتمدة على قيم الإسلام وأخلاقه وتوجيهاته، وتجلّت في أفكار مأخوذه من عقائد الإسلام ومبادئه، وقامت على أشواق وأذواق مرتبطة بحديث القرآن عن الجنة والنار إلخ...

وقد شكل القرآن الكريم والسنة المشرفة أساس الوحدة الثقافية لأمتنا، فهما قد أعطيا المسلمين تصوراً واحداً عن الكون والحياة والإنسان، ورسما لهم أهدافاً واحدة تزاوج بين التطلع إلى الآخرة وإعمار الدنيا، وحدّدا لهم قيماً واحدة تقوم على التطهر والتزكي، وأوجبا عليهم واجبات واحدة تعود على الفرد والمجتمع بالخير في الدنيا قبل الآخرة، وأفعما قلوبهم بتعظيم الله ورجائه وحبّه

مما أورثهم غنى نفسياً وامتلاءً معنوياً تجسد في أوقاف بلغت ثلث ثروة العالم الإسلامي، ووجّها عقولهم إلى التفكر والتدبر والأخذ بالتجريب والابتعاد عن الأوهام والظنون مما جعلهم يبتكرون مخترعات تغني الحياة البشرية في مختلف العلوم والمجالات: كالفزياء والكيمياء والميكانيكا والرياضيات والطب والفلك والصيدلة إلخ...

لقد شكلت الوحدة الثقافية التي استندت إليها الصحوة الإسلامية في إفشالها التغريب أبرز مظهر من مظاهر الأمة الواحدة في وقتنا الحاضر بعد أن نجح أعداء الأمة في تمزيق مظاهر الوحدة الأخرى: السياسي والاقتصادي منها، وقد تبين أنّ هذه الوحدة الثقافية أقوى وأعصى على التذويب والتغييب والتفتيت مما يتصورون.

لقد جاءت الصحوة الإسلامية تعبيراً عن رفض الأمة للتغريب من جهة، وقامت استناداً على الوحدة الثقافية للأمة من جهة ثانية .

والآن بعد مرور أكثر من ثلاثين سنة على بداية الصحوة، فما الذي أنجزته الصحوة الإسلامية؟ ولماذا كانت محدودة الفاعلية والنتائج؟

محدودية فاعلية الصحوة الإسلامية

لقد شكلت الصحوة الإسلامية ظاهرة إيجابية في حياة الأمة الإسلامية، لأنها كانت من مظاهر الانتصار على التغريب الذي قاده الفكر القومي العربي [1]، والذي مثّل أكبر خطر واجه الأمة خلال القرنين السابقين، لكن هذه الصحوة لم تستطع أن تنقل الأمة نقلة نوعية في أية ساحة من الساحات المفتوحة، بل على العكس أنتجت خسائر فادحة في بعض الساحات التي كان الواجب الانتصار فيها وأبرزها الساحة الأفغانية، حيث كان

(**1**) التقى بعض الإسلاميين مع القيادات القومية العربية في مؤتمر سمّوه "المؤتمر القومي الإسلامي"، بدأ أول دورة له عام 1994م، واستمر في عقد دورة له كل عام، واختاروا له أميناً عاماً ولجنة تنفيذية، ولم يكن القصد من هذا المؤتمر سياسياً بل كان حضارياً بمعنى إنشاء نواة لقاء بين التيارين القومي والإسلامي تؤدي إلى تغيير جذري في كيان الأمة ونهضة جديدة، فلا أدري كيف يتوقع الإسلاميون أي دور لايديولوجيا القومية العربية في بناء نهضة جديدة وهي لم تتراجع عن مقولتها القديمة بنفي أي دور أساسي للإسلام في بناء الأمة؟ فأية نهضة جديدة مع تلك المقولة القديمة؟



الإسلاميون هم الطرف الفاعل فيها وليست معهم أية فصائل أخرى كالقوميين والاشتراكيين والعلمانيين إلخ...، وحيث توافر لها الدعم من كل العالم الإسلامي، فشارك مقاتلون مع المجاهدين الأفغان من كل الجنسيات الإسلامية من مصريين، وفلسطينيين، وجزائريين، وتونسيين، وفلبينيين إلخ... كما لم ينقصها مال ولا سلاح، كما توفر لها دعم إعلامي لم تحظ به أية ساحة أخرى. ومع ذلك كانت النتيجة سيئة، فلم يستفد المسلمون شيئاً من تلك الساحة، وذهبت كل التوظيفات المالية والجهادية والإعلامية دون جدوى، وعلى العكس أصبح الجهاد الأفغاني مثالاً سيئاً على اضطراب العمل الإسلامي وفشله في تحقيق آماله وأهدافه[1]، والآن

(1) إن وضع القبول الذي تلقاه الجماعات الإسلامية والعلماء المسلمون ناتج من رصيد الدين الوافي عند عموم المسلمين، لذلك فإن فشلهم في نقل الأمة من وضع إلى وضع أفضل، لا يجعلهم يخسرون جهودهم فقط، بل تكون الخسارة على حساب الأمة، وتكون المحصّلة هي تراجع وضع الأمة بشكل عام من جهة، ونقصان رصيد الخير والقوة الذي بناه السابقون من جهة ثانية، واستقواء العدو ومحاولة استغلاله للفشل في محالة تمكين وضعه من جهة ثالثة.

←



ما السبب في أن الصحوة لم تستطع أن تنقل الأمة نقلة نوعية ؟ وما السبب في أنها لم تستطع أن تحقق انتصاراً في أية ساحة من الساحات بوعي الأمة ؟ السبب في ذلك عدة أمور هي:

الأول: عدم دراسة التجارب الإسلامية المعاصرة وعدم تقويمها :

واجهت الأمة الإسلامية خلال المائتي سنة أعداء شرسين حاولوا تمزيق وحدتها، وطمس هويتها، ونهب اقتصادها، وتغريب مجتمعها، والتشكيك في ثوابت وجودها إلخ... وقد تصدى لهؤلاء الأعداء علماء مخلصون، قادوا جموعاً كثيرة من أبناء الأمة في معركة المواجهة، ونجحوا في جوانب من المعركة وفشلوا في بعضها الآخر، لكننا بكل أسف لا نجد رصداً لكل هذه المعارك والجهود، وإن وجدنا فإننا لا نعثر على تقويم دقيق وعميق لكل هذه المعارك والجهود من أجل معرفة أخطاء العلماء والجماعات وتجنبها، ومعرفة إصاباتهم والبناء عليها.



ويمكن أن نمثّل على ذلك بالجماعة الإسلامية[1] التي أنشأها أبو الأعلى المودودي في باكستان والتي امتدّ عملها ثلاثة أرباع القرن الماضي، ولو قمنا بإحصاء الكتب التي تناولت تلك الجماعة، وأنشطتها، وأفكارها، ومواقفها، لوجدنا ذلك محدوداً لا يتجاوز عدد أصابع اليد، وقس على ذلك بقية الجماعات والأحزاب كالإخوان المسلمين، وحزب التحرير، وجماعة التبليغ، وجماعة النور في تركيا إلخ... وكذلك نجد أن الصحوة الإسلامية لم تقم بدراسات وافية حول الشخصيات الإسلامية والعلماء المسلمين، وكذلك لم تقم بنقد الكتب الإسلامية للتمييز بين الغث والسمين، ومن أجل توجيه الأمة إلى الطريق الأقوم، والسبيل الأسلم في كل مجال.

الثاني: القصور في وعي تطورات الحضارة الغربية:

(1) ألّفت كتاباً تحت عنوان "أبو الأعلى المودودي: فكره منهجه في التغيير، دراسة وتقويم" صدر عام 1996م، اجتهدت فيها أن أساهم في سد هذه الثغرة.



مازالت الحضارة الغربية تمثل التحدي الأكبر لأمتنا كما كانت على مدار القرنين الماضيين، ويقتضي ذلك وعي أسسها التي قامت عليها وعياً تفصيلياً، ووعي تطوراتها، أما وعي أسسها فقد حقق علماؤنا جانباً كبيراً من هذا في مطلع القرن الماضي، ولكن الصحوة الإسلامية مطالبة بوعي تطوراتها العلمية والتكنولوجية والاقتصادية والسياسية إلخ...، والاستفادة من إيجابياتها لتسديد مسيرة الأمة في مجال الإدارة والاقتصاد والاجتماع والسياسة إلخ...، ومما يصعّب القيام بهذه المهمة حجم المعلومات التي تطرحها الحضارة الغربية، والتي تتضاعف بشكل مذهل بسبب تقنيات الكمبيوتر المتقدمة، ولكننا نجد بكل أسف أن الصحوة الإسلامية لم تقدم إنجازات حقيقية في مجال تطورات الحضارة الغربية، بل مازال ينقصها الكثير.

الثالث: عدم رسم خطة للاستفادة من التراث الإسلامي:

نملك تراثاً غنياً في كل المجالات وهو واسع في بعضها ومحدود في بعضها الآخر، فهو واسع في مجالات الفقه وعلم الأصول وعلوم الحديث وعلوم القرآن وعلوم اللغة العربية إلخ... وهو محدود في مجال الدراسات الاقتصادية والسياسية وتعليل التاريخ وفلسفة العلوم إلخ... لذلك فالمطلوب من الصحوة الإسلامية التخطيط لكل قطاع على حدة، فالتراث الواسع لا يحتاج إلى مزيد من بذل الجهود العلمية فيه، بل علينا تقنين خطوات الاستفادة منه. وأما التراث المحدود فعلى العلماء بذل جهود علمية في إغنائه وتوسيعه وتطويره على ضوء العلوم والمعارف التي اكتشفتها البشرية في القرون الأخيرة. ولكننا بكل أسف نرى أن جهود كثير من أبناء الصحوة تذهب إلى القطاع الواسع الذي ربما كانت سعته مصدر مشاكل للمسلمين المعاصرين، وتترك القطاع المحدود مع أنه بحاجة إلى إبداع وتفكير وتوسيع، ويمكن أن نمثل على ذلك بكثرة الدراسات الفقهية، وقلة الدراسات التي تناولت كتب السياسة الشرعية والحسبة والاقتصاد الإسلامي

وعوامل قيام الدول وسقوطها من أجل استخلاص النظريات الشرعية في مجالات الاقتصاد الإسلامي، والحكم الإسلامي، والسياسة الإسلامية، وحركة المجتمع الإسلامي إلخ... والتي تساعد الصحوة في الرد على أعداء الدين الإسلامي من جهة، وبناء خطواتها القادمة من جهة ثانية.

الرابع: التقصير في إيجاد أوقاف واسعة:

شغلت الأوقاف الإسلامية ثلث ثروة العالم الإسلامي في القرون الماضية، ولعبت دوراً واسعاً في حياة الأمة الإسلامية في مختلف المجالات العلمية والاقتصادية والاجتماعية والصحية والعسكرية إلخ... لذلك يجب على الصحوة الإسلامية أن تستفيد من هذا الماضي المشرق وتخطط لإيجاد أوقاف واسعة وغنية تساعد على تدعيم الجوانب العلمية والصحية والاجتماعية في حياة أمتنا، لكنها بكل أسف لم تقم بشيء حقيقي في هذا المجال.

الخامس: القصور في تعميق فهم الإسلام عند جماهير الأمة:

لقد كان من أبرز واجبات الصحوة الإسلامية أن تتجه إلى تعميق وعي المسلمين بالإسلام، والارتقاء بتفكيرهم، وتطوير محاكمتهم العقلية، وتوسيع أفقهم، وزيادة معلوماتهم، وتعريفهم بأهم المشاكل التي تواجههم، وكيفية حلّها إلخ... لكننا نجد أن الصحوة الإسلامية قصّرت في هذا المجال تقصيراً كبيراً، فانتشر الحديث عن السحر وأنواع الجن وطرق التعامل معهم إلخ... واختلط الباطل والشعوذة والأوهام بالحقيقة الدينية والعقلية في هذا المجال، كما انتشر الحديث عن المرأة وزينتها بشكل مفرط ومخز مع تجاهل كبير للأخطار المحدقة بالأمة إلخ...، كما انتشر الحديث عن الرؤى والأحلام والمنامات والكرامات إلخ...، لذلك فإن الصحوة مرت دون تطوير حقيقي لأفهام المسلمين، ودون تحسين نوعي لمعلوماتهم عن الإسلام، ودون توريثهم آلية سليمة في محاكمة الأمور.

السادس: القصور في تعميق الوعي السياسي لجماهير الأمة:

لقد كان من أبرز واجبات الصحوة تعميق الوعي السياسي للمسلمين في عدة مجالات، منها: فهم استراتيجيات الدول الكبرى، وكيفية اتخاذ القرار فيها، والأولويات التي تحكم اتخاذ قرارها، كما كان من واجباتها إعطاء صورة دقيقة لوضع الأمة السياسي والاقتصادي والعسكري والاجتماعي إلخ...، وتحديد أهم الأخطار التي تهدد هذا الوضع، كما كان من واجباتها تحديد الأمراض التي أصابت الأمة، ونقاط ضعفها وقوتها إلخ...، وكذلك مما يجب على الصحوة الإسلامية ألا يقتصر نظرها وموقفها وتقويمها لشؤون العالم الإسلامي على اعتماد الجوانب الشرعية فحسب بل يجب أن يتم النظر والموقف والتقويم من خلال عاملين: الجوانب الشرعية من جهة، ومصلحة الأمة من جهة ثانية، وتشمل مصلحة الأمة: اقتصادها، ووحدتها، وقوتها، وسيادتها، وثقافتها إلخ...

السابع: القصور في حل مشكلة العمل الجماعي:

هناك ظاهرة ملفتة للنظر في العمل الإسلامي المعاصر هي أن الجماعات التي حملت لواء الإسلام في إطار أهل السنة بقيت محدودة الجماهير، تعاني من قلة تفاعل المسلمين معها، وقلة المقبلين عليها، والمندرجين تحت لوائها، وإن وجدت عكس ذلك في إحدى الفترات فأقبلت الجماهير عليها، فقد حدث لفترة مؤقتة ولأسباب غير شرعية من مثل الإحساس بأزمة اقتصادية معينة أو التفاعل مع قضية وطنية، فتأتي هذه الجماهير وتجتمع مع الجماعات الإسلامية على صعيد واحد ثم تنحسر عنها بعد حين قصير عندما تنتهي الشحنة العاطفية الدافعة إلى هذا الانفعال، والسؤال الآن: لماذا لا يرتبط هؤلاء المسلمون ارتباطاً دائماً بهذه الجماعات؟ ولماذا ينحسرون بهذه السرعة؟

لقد جاء عدم ارتباط المسلمين الدائم بتلك الجماعات نتيجة إشكالية يعانيها أهل السنة إلى الآن: وهي شرعية ارتباط

المسلم بالجماعة الإسلامية، هل هو فرض؟ أم مندوب؟ أم متروك لظروف المسلم وأهوائه؟ أم بحسب مصالح ومفاسد معينة؟ أم حرام؟ [1] إلخ...

ربما كان الاضطراب ناتجاً من أن أهل السنة يواجهون لأول مرة في تاريخهم انفراط جماعة المسلمين التي كانوا ينتمون إليها، ويرتبطون بإمامها الذي هو الخليفة، وأن الفقه الإسلامي حرّم أي خروج على جماعة المسلمين، وحرّم تشكيل أية جماعة أخرى تؤدي إلى تمزيق جماعة المسلمين.

ويمكن أن ندرك حجم هذه الإشكالية عند أهل السنة إذا نظرنا إلى تجمعات الطوائف الأخرى في عالمنا العربي

(**1**) درست ظاهرة القصور في العمل الجماعي عند المسلم المعاصر في كتاب لي تحت عنوان: "الجماعة في الإسلام: المشروعية والإطار" صدر في عام 1995م، يمكن أن يعود إليه من شاء التفصيل في معرفة أسباب هذه الظاهرة، والحلول المقترحة لها.

والإسـلامي، ودققنـا في هياكلهـا التنظيميـة، ودورهـا في تسـيير شؤون الطوائف، وتحقيق مكاسبها.

تحدثنا فيما سبق عن محدودية فاعلية الصحوة الإسلامية، والأسباب التي كانت وراء هذه المحدودية، وليس من شك بأن القيادات الإسلامية أضاعت فرصة ثمينة كان بإمكانها أن تنقل الأمة من خلالها إلى آفاق أخرى.

❋ ❋ ❋

تكلمنا في الفصل السابق عن الصحوة الإسلامية، وبيّنا مظاهرها، وأسباب قيامها، ووضحنا العوامل التي أدت على محدودية فاعليتها، وسنستعرض في الفصل القادم أهم الأخطار التي تهددّها بشكل خاص، وتهددّ الأمة بشكل عام.

الفصل الرابع

الأخطار التي تهدد الصحوة والأمة الإسلاميتين

هناك ثلاثة أخطار تهدد الصحوة والأمة الإسلاميتين، هي: القطرية، العولمة، اسرائيل، فكيف نشأت تلك الأخطار؟ وما الصور التي يتحقق فيها ذلك التهديد؟

الخطر الأول : القطرية :

تتعرض الآن وحدة الأمة الإسلامية إلى أخطر تهديد على مدار القرون الماضية جميعها، وهذا التهديد جاء من الكيانات القطرية التي تسعى إلى تأسيس ثقافي مستقل بها، مما سيؤدي إلى تقسيم الأمة الواحدة إلى أمم متعددة مختلفة، ولكن هذا التأسيس الثقافي للقطرية مرّ بمرحلتين:

الأولى: مرحلة تقسيم الأمة الواحدة إلى أمتين: عربية وتركية وقد جاء ذلك على يد دولة الاتحاد والترقي في عام 1908م من الجهة التركية وعلى يد الثورة العربية الكبرى عام 1916م من الجهة العربية، ولم تستطع الثورة العربية أن تجمّع ما كان متفرقاً، بل فرّقت ما كان مجموعاً في اتفاقية سايكس-بيكو وغيرها، ثم جاء التنظير القومي على يد ساطع الحصري ليرسّخ القطرية ليس لأنه أراد

ذلك، بل لأنه جعل الأمة تقوم على عنصري اللغة والتاريخ واستبعد الدين من عناصر تكوين الأمة، وهو في ذلك كان متابعاً النظرية الألمانية، ولكنه نسي أننا لا نستطيع أن نفهم واقع الأمة التي تقطن العالم العربي إلا بالإسلام لأن الإسلام دخل كل تفصيل حياتها الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية الخ... وأننا إذا أردنا أن ننتقل بهذه الأمة من واقع التجزئة إلى الوحدة فلابدّ من الاعتراف بدور الإسلام في بناء الأمة وتفعيل عناصره، وهو ما لم تقم به القيادات القومية فكان بروز القطرية وترسخها، وصار الظن عند عامة الناس بأن التجزئة هي الأصل والوحدة هي الطارئة، مع أن العكس هو الصحيح.

الثانية: مرحلة التأسيس الثقافي المستقل لكل قطر: اتخذ دعاة القطرية عدم التقدم باتجاه الوحدة خلال القرن الماضي حجة من أجل اعتبار الوحدة خيالاً ووهماً، واتخذوا ذلك أيضاً ذريعة من أجل الترويج للقطرية والتأسيس الثقافي لها والذي تجلّى في عدة أعمال، منها: طباعة كتب المؤرخين الذين تناولوا تاريخ القطر، وإبراز الرحالة الذين مرّوا به وكتبوا عنه، وتعظيم رموز الأدب والشعر

المرتبطين به، وتزكية تاريخه السابق على الإسلام كالتاريخ الفرعوني والبابلي والكلداني والآشوري والبربري والسيرياني والفينيقي وإنشاء مراكز ومؤسسات ترعى ذلك التاريخ إلخ... ويرافق كل ذلك الاهتمام باللغة العامية والاهتمام بالشعر الشعبي والترويج لشعرائه ودواوينهم، والاهتمام بالعادات والتقاليد والفولكوز الشعبي الخاص بذلك القطر وإنشاء المتاحف الخاصة به إلخ... ليس من شك بأن هذا التأسيس الثقافي المستقل لكل قطر على حدة يتقاطع مع الوحدة الثقافية التي عرفتها الأمة على مدار تاريخها السابق، وهو في حال استمراره ونجاحه فإنه سيؤدي إلى أخطر ما واجهته أمتنا على مدار تاريخها السابق وهو تحويل الأمة الواحدة إلى أمم متعددة.

الخطر الثاني: اسرائيل:

نشأت الحركة الصهيونية في أوروبا في القرن التاسع عشر، وعقدت اجتماعاً لحركاتها المختلفة في بازل في سويسرا عام 1897م، واستهدفت أرض فلسطين من أجل إقامة دولتها،

ثم تحالفت مع الاستعمار الغربي وبالذات الاستعمار البريطاني، وحاولت انتزاع حق للهجرة من الخلافة العثمانية ولكنها لم تستطع ذلك، ثم وقعت الحرب العالمية الأولى وأصدرت بريطانيا وعد بلفور في نوفمبر من عام 1917م، ثم انتدبت عصبة الأمم بريطانيا على فلسطين، وسهلت الإدارة البريطانية الهجرة لليهود، كما نقلت إليهم كثيراً من الأراضي الأميرية، وساعدتهم على شراء كثير من أراضي الفلسطينيين، ثم قامت الحرب العالمية الثانية، واستغل اليهود الاضطهاد النازي لهم إلى إلزام أوروبا وأمريكا بإيجاد دولة لهم، وأصدرت الأمم المتحدة في أعقاب الحرب العالمية الثانية قراراً في 27 نوفمبر 1947م تقسيم فلسطين إلى دولتين: اسرائيلية وفلسطينية، وأعلنت بريطانيا إنهاء انتدابها على فلسطين في 15 مايو/آيار 1948م، ونشبت الحرب بين الفلسطينيين والصهاينة، ثم اتخذت الجامعة العربية قراراً بدخول الجيوش العربية إلى فلسطين غداة انتهاء الانتداب البريطاني، ووقعت معركة استمرت عدة

شهور انتهت باحتلال الصهاينة معظم أراضي فلسطين وإقامة دولتهم، واعتراف الدولتين العظميين بها: الولايات المتحدة الأمريكية الاتحاد السوفييتي بعد دقائق من إعلان قيامها.

ولن يتوقف خطر الحركة الصهيونية عند إقامة اسرائيل في فلسطين بل سيتعداها إلى عدة أمور:

الأول: التطلع المستمر إلى إقامة اسرائيل الكبرى التي تمتد من الفرات إلى النيل، لذلك فهي خاضت عدة حروب بعد قيامها، واحتلت أجزاء من الدول العربية المحيطة، أبرزها حرب 1956م إذ احتلت كل سيناء، ثم حرب 1967م إذ احتلت كل سيناء مرة ثانية من مصر، والجولان من سورية، والضفة الغربية من الأردن.

الثاني: التطلع إلى أن تكون القوة المسيطرة على الشرق الأوسط سياسياً واقتصادياً وتوجيهاً وتأثيراً [1]، وحتى تستطيع أن تحقق

---

(1) ومما يؤكد التطلعين المشار إليهما في الفقرتين السابقتين أن اسرائيل نشرت دراسة تحت عنوان: "لنحوّل الحلم إلى حقيقة" قام بها معد التخنيون في حيفا عام 1994م لاستشراف صورة اسرائيل عام 2020م، وعمل في هذه الدراسة أكثر من 250 خبيراً من مختلف أنحاء العالم تحت اشراف صمويل نيمان مدير المعهد، وقام بتولّي عمليات التنسيق البروفيسور آدم مازور، وصدر العمل عام 1997م في 18 مجلداً في كل الاختصاصات مدعّماً بالجداول والخرائط والرسوم، وقد أجابت الدراسة عن عدة أسئلة، منها سؤال: ماذا تريد اسرائيل في أجواء السلام؟ فجاء الجواب: أن على اسرائيل التمسك بمبدأين:

الأول: تعزيز الأمن القومي (أي استمرار التفوق العسكري) علماً بأن اسرائيل تمتلك 200 رأساً نووياً حتى الآن.

الثاني: ضمان الملكية القومية للأرض (أي استمرار احتلال الأرض العربية).

ويوضح التقرير أن اسرائيل تتطلع إلى أن تكون في مصاف الدول الثماني الأولى في العالم اقتصادياً في عام 2020م، كما أنها ستستخدم من ←



ذلك لابد من تفتيت المنطقة إلى فسيفساء طائفية وإثنيّة وعرقية من أجل أن تبقى اسرائيل هي القوة الفاعلة، لذلك نجدها تغذي الحركات الطائفية والعرقية كلما أتيحت لها فرصة، وقد صرح بهذا كبار مؤسسي اسرائيل من أمثال بن غوريون وبيغن وشامير إلخ...، وقد أكدت الوقائع هذا التوجه كما حدث مع التدخل الاسرائيلي في الحرب الكردية العراقية، وكما حدث معها عندما تدخلت في الحرب اللبنانية ودعمت الموارنة ممثلين ببشير الجميل من أجل السيطرة على لبنان بعد الاجتياح الاسرائيلي للبنان عام 1982م.

الثالث: الادعاء بأنها رسول الحضارة الغربية وقيمها ومثلها في المنطقة، وبأنها واحة الحرية والديمقراطية في مواجهة الديكتاتورية والوحشية والهمجية والبربرية عند العرب!!!

أرضها 20٪ للزراعة، و 5٪ للبناء، وستبقى 75٪ من الأرض للخدمات العسكرية.

الخطر الثالث : العولمة:

لقد أصبح مصطلح العولمة متداولاً منذ بداية التسعينات، وأصبح علماً على الفترة الجديدة التي بدأت بتدمير جدار برلين عام 1989م وسقوط الاتحاد السوفييتي وتفككه، وانتهت بتغلّب النظام الرأسمالي على النظام الشيوعي، وانفراد أمريكا بقيادة العالم.

لذلك فإن العولمة تتكون من العناصر الرئيسية التالية :

1- **تعميم الرأسمالية**: إن تغلّب الرأسمالية على الشيوعية جعلها تعمم مبادئها على كل المجتمعات الأخرى، فأصبحت قيم السوق، والتجارة الحرة، والانفتاح الاقتصادي، والتبادل التجاري، وانتقال السلع ورؤوس الأموال، وتقنيات الإنتاج والأشخاص والمعلومات هي القيم الرائجة، وتقود ذلك أمريكا وتفرضها عن طريق مؤسسات البنك الدولي، ومؤسسة النقد الدولي، وغيرها من المؤسسات العالمية التابعة للأمم المتحدة، وعن طريق الاتفاقات العالمية التي تقرها تلك المؤسسات كاتفاقية الجات وغيرها.

2- **القطب الواحد**: تفردت أمريكا بقيادة العالم بعد سقوط الاتحاد السوفييتي وتفكيك منظومته الدولية، ومن الجدير بالملاحظة

أنه لم تبلغ إمبراطورية في التاريخ بقوّة أمريكا العسكرية والاقتصادية ، مما يجعل هذا التفرد خطيراً على الآخرين في كل المجالات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية إلخ...

3- **ثورة التقنيات والمعلومات**: مرّت البشرية بعدّة ثورات علمية منها ثورة البخار والكهرباء والذرّة وكان آخرها الثورة العلمية والتكنولوجية والخاصة بالتطورات المدهشة في عالم الكمبيوتر، وتوصل الكمبيوتر الحالي إلى إجراء أكثر من ملياري عملية مختلفة في الثانية الواحدة وهو الأمر الذي كان يستغرق ألف عام لإجرائه في السابق، أما المجال الآخر من هذه الثورة فهو التطورات المثيرة في تكنولوجيا المعلومات والاتصالات والتي تتيح للأفراد والدول والمجتمعات للارتباط بعدد لا يحصى من الوسائل التي تتراوح بين الكبلات الضوئية والفاكسات ومحطات الإذاعة والقنوات التلفزيونية الأرضية والفضائية التي تبث برامجها المختلفة عبر حوالي 2000 مركبة فضائية، بالإضافة إلى أجهزة الكمبيوتر والبريد الألكتروني وشبكات الإنترنت التي تربط العالم بتكاليف أقل وبوضوح أكثر على مدار الساعة، لقد تحولت تكنولوجيا المعلومات إلى أهم

مصدر من مصادر الثروة أو قوة من القوى الاجتماعية والسياسية والثقافية الكاسحة في عالم اليوم.

ما هي أخطار العولمة وكيف نواجهها ؟

1- الخطر الأول: إحياؤها مجتمع الخمس وإفقارها أربعة أخماس المجتمع الآخرين:

ستؤدي العولمة إلى تشغيل خمس المجتمع وستستغني عن الأربع الأخماس الآخرين نتيجة التقنيات الجديدة المرتبطة بالكمبيوتر فخمس قوة العمل كافية لإنتاج جميع السلع، وسيدفع ذلك بأربعة أخماس المجتمع إلى حافة الفقر والجوع، ومن مخاطر العولمة أيضاً قضاؤها على حلم مجتمع الرفاه، وقضاؤها على الطبقة الوسطى التي هي الأصل في إحداث الاستقرار الاجتماعي، وفي إحداث النهضة والتطور الاجتماعي، ومن مخاطرها أيضاً دفعها بفئات اجتماعية متعددة إلى حافة الفقر والتهميش، وتشير الأرقام إلى أن 358 مليارديراً في العالم يمتلكون ثروة تضاهي ما يملكه 2.5 مليار من سكان العالم أي ما يزيد قليلاً عن نصف سكان العالم. وأن هناك 20٪ من دول العالم تستحوذ على 85٪



من الناتج العالمي الإجمالي، وعلى 84٪ من التجارة العالمية، ويمتلك سكانها 85٪ من مجموع المدخرات العالمية. وهذا التفاوت القائم بين الدول يوازيه تفاوت آخر داخل كل دولة، حيث تستأثر قلّة من السكان بالشطر الأعظم من الدخل الوطني والثروة القومية، في حين يعيش أغلبية السكان على الهامش.

لقد اتخذ الجريمة أبعاداً جديدة في عصر "العولمة" فأصبحت وباء واسع الانتشار، ويمكن أن نمثل بالولايات المتحدة، ففي ولاية كاليفورنيا – التي تحتل بمفردها المرتبة السابعة في قائمة القوى الاقتصادية العالمية – فاق الإنفاق على السجون المجموع الكلي لميزانية التعليم. وهناك 28 مليون مواطن أمريكي، أي ما يزيد على عشر السكان، قد حصّنوا أنفسهم في أبنية وأحياء سكنية محروسة. ومن هنا فليس بالأمر الغريب أن ينفق المواطنون الأمريكيون على حراسهم المسلّحين ضعف ما تنفق الدولة على الشرطة.

ونلاحظ في هذا الصدد أن ظاهرة فتح الأبواب على مصراعيها أمام التجارة الحرة باسم حرية السوق قدر رافقتها نسبة مهولة من ازدياد الإقبال على المخدرات، فقد ارتفع حجم المبيعات

في السوق العالمية لمادة الهيروين إلى عشرين ضعفاً خلال العقدين الماضيين، أما المتاجرة بالكوكايين فقد ازدادت خمسين مرة.

يمكن أن نواجه خطر العولمة هذا بالتوجه إلى الوحدة، لأنه لن يستطيع أي قطر أن أثر التهديدات الاقتصادية بمفرده، ويمكن أن نواجه خطر العولمة أيضاً بالتوجه إلى تفعيل المؤسسات الشعبية، وإحياء دور المؤسسات الوقفية.

2- الخطر الثاني: الأمركة:

الأمركة هي الخطر الثاني، والأمركة تعني أخذ معطيات الحضارة الغربية في كل المجالات: ثقافياً، واجتماعياً، وتربوياً، وسلوكياً إلخ...، ولكن أخطر ما في الأمركة نسبية الحقيقة [1] التي تقوم عليها، وهي التي تتصادم تصادماً مباشراً مع ثوابت الدين الإسلامي المستمدة من النص القطعي الثبوت القطعي الدلالة،

(**1**) هناك أخطار أخرى للأمركة، منها: العلمانية الجزئية، والعلمانية الشاملة، والداروينية الاجتماعية، والحداثة إلخ... لم أتعرض لها لأن المقام لا يتسع للتفصيل في كل الأخطار.

لذلك نجد أن قوى الأمركة تدعم كل من يروج لنسبية الحقيقة، فقد امتدح بللترو وكيل وزارة الخارجية الأسبق ثلاثة من الكتّاب العرب، ودعا إلى ترويج كتاباتهم واعتمادها وهم: محمد شحرور من سورية، ومحمد سعيد العشماوي من مصر، ومحمد أركون من الجزائر، وإنّ ما يجمع هؤلاء الثلاثة هو إيمانهم بنسبية الحقيقة، وتفسيرهم النص القطعي الثبوت القطعي الدلالة الذي يتناول ثوابت الدين الإسلامي: العقائد، والحدود، والميراث، وتشريعات الأسرة: كالزواج، والطلاق إلخ... على أنه انعكاس لبيئة العرب الجاهلية، وربطهم بينه وبين الواقع الجاهلي، ولذلك فنحن لسنا ملزمين به وعلينا أن نفسر هذه النصوص على ضوء واقعنا الجديد، ونعطيها مضموناً آخر وبعداً جديداً، أي بمعنى ثبوت النص وتغيّر المعنى.

تقوم الثقافة الغربية على نسبية الحقيقة، ويعود تكوّن تلك الركيزة الثقافية إلىفترة أبعد من العصور الحديثة ويرتبط بالعصور الوسطى، فمن المعروف أنّ الكنيسة كانت تنطلق آنذاك في حكمها لأوروبا من نص الإنجيل المقدس، والذي كان ثابتاً والذي كانت تحتكر تفسيره، وعندما قامت حقائق علمية وكونية متعدّدة

تناقص النص المقدس الثابت، وتناقض تفسير رجال الكنيسة له وقع التصادم المريع بين الدين والعلم، وكانت النتيجة اضطهاد رجال العلم بحجة مخالفة النص المقدس الثابت، ولكنّ الكنيسة انهزمت أمام الثورة عليها وأمام حقائق العلم، واعتبرت الثورة رجال الدين عقبة في طريق العلم والتقدم، وصار الربط حينئذ بين ثبات حقائق الدين وبين نسبية الحقيقة.

ومنذ أن بدأ التفاعل بين الثقافتين: الإسلامية والغربية، كان التصادم بين النص القطعي الثبوت القطعي الدلالة من الثقافة الإسلامية، وبين نسبية الحقيقة من الثقافة الغربية هي أبرز صور التصادم، وسأعرض لبعض صور التصادم من خلال بعض الوقائع التاريخية.

نسبية الحقيقة عند الدكتور طه حسين:

ومن أول الدعوات إلى نسبية الحقيقة ما أثاره طه حسين في كتاب "في الشعر الجاهلي" عام 1926م، فقد تعرض لنصوص قطعية الثبوت قطعية الدلالة تحدثت عن بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام للكعبة، وتشكك في تلك الحقيقة، وحتى في

وجودهما التاريخي، وفي هجرتهما، ورأى أنّ قريشاً اختلقت تلك القصة لأسباب سياسية واقتصادية، ورأى فيها نوعاً من الحيلة لإثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية من جهة أخرى، وبين القرآن والتوراة من جهة ثالثة. وكانت حجة طه حسين فيما أنكره هو وجود تشابه بين قبول العرب لبناء الكعبة من قبل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وبين أسطورة قبلها الروم، نقول أن بإينياس بن بريام صاحب طروادة اليوناني هو الذي بنى روما من أجل إقامة الصلة بين روما واليونان، وفي الرد على مقولة طه حسين السابقة نتساءل: هل يجوز لطه حسين أن يرد نصوصاً قطعية الثبوت قطعية الدلالة في شأن وجود ابراهيم واسماعيل – عليهما السلام – وفي شأن بنائهما الكعبة من أجل وجود أساطير مشابهة قبلها الرومان عن بناء روما من قبل بإينياس بن بريام صاحب طروادة اليوناني؟

نسبية الحقيقة عند الدكتور حسين أحمد أمين:

ومن صور الدعوة إلى نسبية الحقيقة أيضاً حديث الدكتور حسين أحمد أمين في كتابه "حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة

الإسلامية" عن حد السرقة الذي ورد في نص قطعي الثبوت قطعي الدلالة في قوله تعالى: ﴿**والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيدِيَهما جزاءً بما كَسَبا نَكالاً مِنَ اللهِ**﴾ (المائدة، شَعبان ربيع أول)، فقد ربط الدكتور بين ذلك الحدّ وبين الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية آنذاك، وبيّن أنّ العربي كان ينقل كل متاعه على راحلته، وإنّ سرقته تعني سلبه كل ما يملك من جهة، وتعني هلاكه من جهة ثانية، لذلك جاء الحكم بتلك الصورة لأنه مرتبط بالأموال المنقولة، والآن أصبحت الأموال غير المنقولة أثمن وأغلى من الأموال المنقولة لذلك فهو يقترح تغيير الحكم انطلاقاً من تغيّر الوضع الاقتصادي. وفي مجال الرد على مقولة الدكتور حسين أحمد أمين عن حد السرقة، نتساءل: لماذا يربط الدكتور حسين أحمد أمين بين حد السرقة وبين الأموال المنقولة ولا يربط ذلك بفعل السرقة الشنيع وما يشتمل عليه من ترويع وتخويف واعتداء على المسروق، وما يصوره من طمع السارق ودناءته وتطلعه إلى ما في يد الغير بغير حق مشروع؟

نسبية الحقيقة عند الدكتور نصر حامد أبو زيد:

ومن صور المناداة بنسبية الحقيقة حديث الدكتور نصر حامد أبو زيد في كتابه "نقد الخطاب الديني" عن النصوص القطعية الثبوت القطعية الدلالة في عدة مجالات منها: صفات الله وفي مجال آخر هو الحسد والسحر والجن والشياطين، فقد اعتبر أنّ الألفاظ الأخيرة مرتبطة بواقع ثقافي معين ويجب أن نفهمها في ضوء واقعها الثقافي، وإنّ وجودها الذهني السابق لا يعني وجودها العيني، وقد أصبحت الآن ذات دلالة تاريخية، والدكتور نصر حامد أبو زيد في كل أحكامه السابقة ينطلق من أنّ النصوص الدينية نصوص لغوية تنتمي إلى بنية ثقافية محدودة، تم انتاجها طبقاً لنواميس تلك الثقافة التي تعد اللغة نظامها الدلالي المركزي، وهو يعتمد على نظرية عالم اللغة "دي سوسير" في التفرقة بين اللغة والكلام، وينتهي الدكتور نصر حامد أبو زيد إلى ضرورة إخضاع النصوص الدينية إلى المناهج اللغوية المشار إليها سابقاً. لماذا يعتبر الدكتور نصر حامد أبو زيد الكلمات: السحر والحسد والجن والشياطين ألفاظاً ذات دلالات تاريخية؟ فهل نفى العلم بشكل قطعي وجود حقائق عينية لتلك الألفاظ حتى نعفي عليها ونعتبرها ألفاظاً لا حقائق لها وذات

دلالات تاريخية؟ وقد قاد المنهج السابق الدكتور أبو زيد إلى اعتبار القرآن الكريم نصاً تاريخياً ودعوته إلى ضرورة فهم النصوص في سياقها الاجتماعي والتاريخي، وكانت نتيجة ذلك التوصل إلى أحكام مخالفة لكل ما عرفه الرسول ﷺ والصحابة والتابعون وأجمعت عليه الأمة على مدار تاريخها، فعندما درس آية تعدد الزوجات بخاصة في كتابه "دوائر الخوف: قراءة في خطاب المرأة" الذي أصدره عام رَمَضَانرَمَضَانرَمَضَانمُحَرَّم اعتبرها تشريعاً مؤقتاً لمعالجة موقف طارئ وبناء عليه يدعو إلى أن تقنن الدولة تشريعات تلزم المسلمين بالزواج من واحدة، كما يدعو إلى المساواة بين الرجل والمرأة في حق طلب الطلاق، كما يدعو إلى المساواة بين الرجل والمرأة في الميراث، كما يدعو إلى اعتبار شهادة المرأة مثل شهادة الرجل على الإطلاق، كما يعتبر أن كل هذه الضجة المفتعلة حول الحجاب لا تستحق كل الجهود المبذولة في مناقشتها ويعتبر أن انتشار الحجاب في السنوات الأخيرة كان رد فعل على الهزائم التي وقعت سواء حرب 1967م أو حروب البوسنة والهرسك، وهو يعتبر أن مفهوم العورة ليس مفهوما كلياً ثابتاً في وعي الجماعة

البشرية، لذلك ينتهي من خلال النظر في السياق القرآني أن العورة هي الأعضاء الجنسية فقط بالنسبة للأحياء، وهي جثة الشخص الميت. ويمتدح نصر حامد أبو زيد قانون الأحوال الشخصية الذي صدر في تونس عام 1957م، والذي يقنن معظم الأمور السابقة مثل: منع الزواج من ثانية ووضع العقوبات على ذلك بالحبس لمدة سنة وبغرامة مالية أو بإحداهما، وربط الطلاق بالقاضي، وجعل شهادة المرأة مساوية لشهادة الرجل بعد بلوغ سن العشرين، وجعل ميراث المرأة مثل ميراث الرجل، وإقرار التبني وحصول المتبنّى على ميراث مساو للابن الشرعي.

سأمثل على منهج الدكتور أبو زيد في كيفية تطبيق منهجه في اعتبار القرآن الكريم نصاً تاريخياً بحديثه عن الآية الكريمة: ﴿**للذكر مثل حظ الأنثيين**﴾ (النساء، مُحَرَّمٌ مُحَرَّمٌ)، فقد علّل الدكتور نصر حامد أبو زيد الحكم السابق الوارد في الآية السابقة بأن الواقع الذي يخاطبه الوحي ويتوجه إليه النص يقوم على الاعتداد بعلاقات الدم والنسب الأبوية على وجه الخصوص، إنه مجتمع العصبية الذكورية، وهو من جهة أخرى مجتمع يقوم على الصراع على منابع

المياه والكلأ. في مثل هذا المجتمع يتحدد دور الأنثى ومكانتها في الخلفية، لذلك عندما أعطاها الوحي نصف حظ الذكر اعتبرت هذه الخطوة تقدمية، لذلك علينا أن نمضي في السياق نفسه وبعد مرور أربعة عشر قرناً على ذلك الحكم، فنجعل الآن ميراث المرأة مساوياً لميراث الرجل. ويمكن أن نعلق على دعوته تلك بالأمور التالية:

أولاً- إن المرأة التي أعطاها الشرع نصف حظ الرجل في الميراث، إنما أعطاها ذلك وهي ليست مسؤولة عن الإنفاق في كل أحوالها سواء أكانت بنتاً أم زوجاً أم أمّاً.

ثانياً- يعتبر الشرع أن مؤسسة الأسرة ثابتة، وهي المؤسسة التي يجب أن تقوم من خلالها علاقة الرجل بالمرأة، والذكر بالأنثى، لذلك يفترض الشرع أن تبقى هذه النسبة ثابتة.

ثالثاً- إن ظلم المرأة وإنصافها لا يكون المؤشر الحقيقي عليه تعديل نصيبها في الميراث، بل في جملة التوجيهات والقيم والمبادئ التي رافقت نشاتها ووجودها وتربيتها وحقوقها والتي حفلت بها آيات القرآن الكريم وأحاديث السنة المشرفة.



٤- إن المرأة التي أعطاها الشرع نصف حظ الذكر تحصل في بعض حالات توزيع الميراث أكثر مما يحصل عليه الذكر.

نسبية الحقيقة عند الدكتور محمد شحرور:

أما الدكتور محمد شحرور فقد دعا إلى نسبية الحقيقة في كل المجالات الدينية كالعقيدة، والحدود، والمرأة، والجنة، والنار، والملائكة والشياطين إلخ... وقد ورد جانب كبير من أقواله في كتابه "الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة" الذي استعرض في بدايته منهجه الذي يقوم على المطابقة بين المعنى اللغوي والمعنى الشرعي للفظ والقائم على عدم وجود الترادف في اللغة مستنداً على نظرية أبي علي الفارسي، وقد سبقته المعتزلة إلى هذا المنهج معتمدين على قوله تعالى: ﴿**وما أَرْسَلنا مِنْ رسولٍ إلا بلسانِ قومِهِ لِيُبَيِّنَ لهم فيُضلّ اللهُ مَنْ يشاء ويهدي مَنْ يشاء وهو العزيز الحَكيم**﴾ (إبراهيم، ٤) فأوقعهم هذا المنهج في ضلالات متعددة أبرزها حصرهم معنى الكلمة بالمعنى اللغوي وحده، وقد ردَّ ابن تيمية عليهم معتمداً على منهج أهل السنة في النظر إلى هذه الألفاظ، فبيّن أنّ بعض الألفاظ مثل: الإيمان، الصلاة، الكفر إلخ... نقلها الشرع من معناها

اللغوي وأعطاها معنى آخر، فأصبحت مصطلحاً محدّداً وضّحه القرآن والسنة توضيحاً كاملاً، فمثلاً لفظ الإيمان يعني لغة التصديق لقوله تعالى: ﴿**وما أنت بمؤمن لنا**﴾ (يوسف، ١٧) بمعنى وما أنت بمصدّق لنا، لكنه يعني في الشرع الإيمان بالله والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر، ويعني الإيمان بالله بصفاته التي وردت في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، وكذلك قل بالنسبة لبقية الأركان التي دخلت في مسمّى الإيمان، وقد أجمل بعض علمائنا تعريف الإيمان فقالوا: الإيمان قول باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان.

وقد نتجت فروق رئيسية بين الإيمان عند المعتزلة وعند أهل السنّة نتيجة الخلاف في منهج التعامل مع كلمة الإيمان أبرزها: إدخال أهل السنّة العمل في مسمّى الإيمان وبالمقابل عدم إدخال المعتزلة له، فشتان ما بين الإيمان لغة واصطلاحاً.

وكذلك الصلاة في اللغة تعني الصلة والدعاء، لكن الصلاة في الشرع أصبحت مصطلحاً يدل على أعمال منها: القيام، والركوع، والسجود، وقراءة الفاتحة، والتسبيح إلخ ... ويجب أن

يسبق تلك الأعمال شروط منها: طهارة البدن، وطهارة الثياب، وطهارة المكان، ودخول الوقت إلخ...، ويجب أن يرافق ذلك أعمال قلبية منها: الخشوع، والاطمئنان، والتعظيم، والتذلّل إلخ... فشتان ما بين الصلاة لغة واصطلاحاً.

والآن بعد هذا التوضيح لمنهج أهل السنّة في التعامل مع المصطلحات الشرعية واختلافه مع منهج المعتزلة، نعود إلى مناقشة الدكتور شحرور ونشير إلى الأمور التالية:

مُحَرَّمٌ- كرّر الدكتور محمد شحرور خطأ المعتزلة في عدم التمييز بين المصطلحات والألفاظ، فالألفاظ التي تعرض لها الدكتور مثل: الكتاب، والقرآن، والنبي، والرسول، وأم الكتاب، والسبع المثاني إلخ... لم تعد ألفاظاً تحتاج إلى أن نستقرئ معناها اللغوي في المعاجم، بل علينا أن نستقرئ معناها في مصادر الشرع، لذلك فإنّ كل الفروقات والتمييزات والمعاني التي حاول أن يستنبطها الدكتور شحرور من معاني الألفاظ المعجميّة وحدها إنما هو أمر لا طائل تحته، وكل النتائج التي بناها على التفريق بين الكتاب والقرآن، وأنّ القرآن هو الآيات المتشابهات والسبع المثاني إلخ... نتائج غير

صحيحة لأن الشرع هو الذي حدّد مضمون هذه الألفاظ، وعلى كل من يريد أن يفهم الدين عليه أن يلِجَه من باب مصطلحاته الخاصة التي رسمها وحدّد معناها، وفي تقديري إنّ مثل هذه الخطوة طبيعية وهي من حق كل مذهب وعلم ودين أن يحدّد مصطلحاته الخاصة التي تكون مدخلاً له.

٢٠ - حمّل الدكتور شحرور بعض الألفاظ معاني لا تسمح بها اللغة ولا سياق النص، ومن أمثلة ذلك تفسيره عبارة أم الكتاب التي وردت في ثلاثة آيات كريمة برسالة محمد ﷺ وأضاف إلى ذلك تحديد مضمون تلك الرسالة وهي الحدود والأخلاق والعبادات وتعليمات خاصة وعامة، ولو فسّرنا كلمة "أم الكتاب" معجميّاً لوجدناها تعني "أصل الكتاب"، ولو استقرأنا الآيات التي وردت فيها تلك العبارة لوجدنا أنها تحتمل معنيين:

الأول : الآيات المحكمات. وذلك لقوله تعالى: ﴿**هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب وأُخَرُ متشابهات فأمّا الذين في قلوبهم زَيْغٌ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويِله وما يعلم تأويلَه إلا الله والرّاسخون في العلم**

يقولون آمنّا به كلّ من عند ربّنا وما يذّكر إلا أولو الألباب﴾ (آل عمران،7) وقد فصّلت كتب علوم القرآن تعريف المحكم وتعريف نقيضه المتشابه.

الثاني: اللّوح المحفوظ: وذلك لقوله تعالى: ﴿**يمحو الله ما يشاء ويُثْبت وعنده أُمّ الكتاب**﴾ (الرعد،39) ولقوله تعالى: ﴿**وإنّه في أُمّ الكتاب لدينا لعليّ حكيم**﴾ (الزخرف،4).

وفي كلا الحالين يتّضح تحميل الدكتور شحرور للفظ "أم الكتاب" معاني لا يحتملها التحليل اللغوي ولا سياق النّص، وممّا يزيد في اعتسافه أنه حدّد الآيات المحكمات بالحدود والأخلاق والعبادات، لكنّه يمكن أن تكون الآيات المحكمات في صفات الله تعالى، أو بعض آيات الجنّة والنّار إلخ... كقوله تعالى: ﴿**قل هو الله أحد**﴾ (الصمد،1)،وكقوله تعالى: ﴿**لم يلد ولم يولد**﴾(الصمد،3)، وكقوله تعالى عن الجنّة: ﴿**لا يمسُّهم فيها نصب**﴾ (فاطر،35) إلخ...

3- ومما زاد في خطأ استنتاجه وأحكامه في أحيان كثيرة رفضه للسنة كمبيّن ومقيّد ومفصّل لآيات القرآن الكريم، ليس هذا

فحسب بل اعتباره تطبيق الرسول ﷺ للإسلام هو اجتهاده غير الملزم لنا في شيء، وهو فهمه الخاص المرتبط بالمستوى المعرفي للجزيرة العربية، وهو فهم نسبي، وهو في هذا يلتقي مع كثير من الفئات المنحرفة التي عادت السنة المشرفة قديماً كالمعتزلة والخوارج، ويلتقي مع كثير من الشخصيات التي هوّنت من شأن السنة حديثاً ودعت إلى طرحها جانباً: كحسين أحمد أمين، ومحمد أبو القاسم حاج حمد إلخ...

وليس من شك بأن هذه الأقوال في التهوين من شأن السنة المشرّفة والدعوة إلى طرحها جنباً، تتناقض تناقضاً كاملاً مع أمر الله تعالى في عشرات الآيات الكريمة من القرآن الكريم بطاعة الرسول ﷺ إلى جانب طاعته سبحانه وتعالى، وقد أشار إلى جانب من ذلك الشافعي –رحمه الله– في بداية كتاب "الرسالة"، والتي تساءل فيها: من أين لنا أن نستدل على لزوم طاعة الرسول ﷺ ؟ فأجاب بأن القرآن هو الذي وجّهنا إلى ذلك، وأوجب علينا ذلك، واستشهد بالآيات التي أمرت بطاعة الرسول ﷺ ومنها قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمر**

منكم﴾ (النساء، رمضان جمادى أول)، ومنها: **﴿مَنْ يُطِعِ الرسول فقد أطاع الله﴾** (النساء، شوال شعبان)، ومنها: **﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنـــــــهُ فـــــــانتهوا﴾** (الحشـــــر، رجب)، ومنهـــــــا: **﴿إنّما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾** (النور، محرم جمادى أول) إلخ...

إنّ النظر إلى القرآن وحده ، دون الأخذ بالسنة معه ،هو الذي جعل الكاتب يخرج علينا بتفاسير غريبة لبعض الآيات الكريمة أو بعض الألفاظ والكلمات: كالقيامة والبعث والصور والساعة والسّبع المثاني إلخ... وسأمثّل لذلك بمثال واحد هو تفسيره للسّبع المثاني التي أورد ما جاء عن أصلها في مقاييس اللغة فقال: (المثناةُ: طرف الزمام في الخشاش) وإنما يثنى الشيء من أطرافه، فالمثاني إذاً أطراف السور وهي إذن فواتحها، فتوصّل إلى أنّ السبع المثاني هي سبع فواتح للسور، فإذن السبع المثاني هي الفواتح التالية: محرم– ألم صفر– ألمص ربيع أول– كهيعص ربيع ثان– يس جمادى أول– طه جمادى ثان– طسم رجب– حم

ثم نظر إلى الأحرف التي تتضمنها الآيات السبع السابقة فوجدها تتألف من مُحَرَّمٌ مُحَرَّمٌ حرفاً، وأخذ الأحرف التي وردت في بداية سور أخرى ولم ترد في الفواتح السابقة فوجد أنها ثلاث هي: مُحَرَّمٌ– القاف صَفَرٌ– الراء رَبِيعٌ أَوَّلٌ– النون . نجمعها مع الأحرف السابقة فصارت أربع عشر أحرفاً، وأشار إلى أنها أصبحت (رَجَبٌ × صَفَرٌ) وهي أيضاً سبع مثان.

وربط بين ما توصّل إليه وهو أنّ أحرف السور الفواتح بلغت أحد عشر حرفاً وبين قول علماء اللغويات واللسانيات من أنّ الحد الأدنى لأية لغة إنسانية معروفة في العالم هو أحد عشر صوتاً، واعتبر أنّ هذا هو الحد الأدنى اللازم من الأصوات لأي تفاهم بيننا وبين أية مخلوقات يمكن أن توجد في الكواكب الأخرى في المستقبل.

هذا ما أورده الدكتور شحرور في تفسيره للسبع المثاني، ولنر ما ورد في السنّة عن تفسير السّبع المثاني لنر مدى ابتعاده عن الصواب لغة وشرعاً وعقلاً.

قال الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى- في مسنده عن أبي سعيد بن المعلّى ﷺ قال : "كنت أصلّي فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه حتى صلّيت، قال: فأتيته فقال: ما منعك أن تأتيني؟ قال، قلت: يا رسول الله إني كنت أصلّي قال: ألم يقل الله تعالى: "يا أيّها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يُحييكم" (الأنفال، ٢٤) ثم قال: لأُعلّمنّك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد. قال: فأخذ بيدي فلمّا أراد أن يخرج قلت: يا رسول الله إنك قلت لأعلّمنّك أعظم سورة في القرآن. قال: نعم "الحمد لله رب العالمين" هي السّبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته". والآن: هل بعد تفسير الرسول ﷺ للسّبع المثاني من تفسير؟

لا أظن أنه يجوز لمسلم بعد أن يسمع تفسير الرسول ﷺ أن يتطلع إلى تفسير آخر، وأحب أن أُنوّه بالإضافة إلى ما سبق إلى أنّ تفسير السنّة للسّبع المثاني أصوب من ناحية لغويّة مما ورد عند الدكتور شحرور لأنه اختار كلمة مثناة وترك الأصل ثني، وقد جاء في مقاييس اللغة عن الأصل ثني ما يلي:

"الثاء والنون والياء أصل واحد وهو تكرير الشيء مرتين، أو جعله شيئين متواليين أو متباينين" والحقيقة إنّ هذا التعريف اللغوي أكثر انطباقاً على الفاتحة وهو أصل المعنى لأن الفاتحة سبع آيات تتكرّر وتثنى في كلّ صلاة، لذلك لم يأخذ به الدكتور شحرور واختار كلمة أخرى هي "المثناة" ليجعلها أصلاً في دراسته ، وليصوغ النتيجة التي يريد أن يتوصّل إليها وهي مطابقة الأحرف في فواتح السور مع أصل الأصوات في اللغات الإنسانية.

وقد انتبه خيار الصحابة إلى أنّ فهم القرآن الكريم دون ربطه بالسنّة قابل لكل التفسيرات، لذلك وجّه علي بن أبي طالب أبن عبّاس رضي الله عنهما أن يحاجج الخوارج بالقرآن الكريم والسنّة المشرفة معاً عندما أرسله لمناقشة الخوارج فقال له: "لا تحاججهم بالقرآن وحده فإنّ القرآن حمّال أوجه، حاججهم بالسنّة".

ربيع ثان– تناول الدكتور محمد شحرور كل النصوص القطعية الثبوت القطعية الدّلالة تقريباً فهو تناول آيات الحدود وآيات الربا وآيات الميراث وآيات الطلاق والزواج إلخ... المهم أنه انتهى من تناوله لكل الآيات السابقة إلى فهمها فهماً جديداً مخالفاً لكل الأفهام

التي طرحت سابقاً، فهو بالنسبة للربا حرّم فقط ربا الضعف، وبالنسبة لآيات الميراث اقترح تغيير الأنصبة التي حدّدها الشرع لكل فرد من أفراد الأسرة، وبالنسبة لتعدد الزوجات أباحه فقط من الأرامل ذوات الأولاد، وبالنسبة لمعالجة الزوجة الناشز فقد ألغى بعض مراحل معالجة نشوزها إلخ... وفي مجال الإرث دعا شحرور إلى المساواة بين الرجل والمرأة، وفي مجال العورة اعتبر شحرور أن الزينة الظاهرة في قوله تعالى: ﴿**ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها**﴾ (النور، ٣١) هي الزينة الظاهرة من جسد المرأة بالخلق أي ما أظهره الله ﷻ في خلقها كالرأس والبطن والظهر والرجلين واليدين، واعتبر أن الزينة التي يجب أن تخفيها هي الجيوب وهي: ما بين الثديين وتحت الثديين وتحت الإبطين والفرج والإليتين، وهذه الجيوب هي العورة، لذلك إذا ظهرت البنت أمام والدها عارية فهذا ليس حراماً بل عيباً فقط، واعتبر أن تغطية الوجه خروج عن حدود الله.

❋ ❋ ❋



استعرضنا فيما سبق نسبية الحقيقة عند طه حسين، وحسين أحمد أمين، ونصر حامد أبو زيد، ومحمد شحرور، ورأينا اتباعهم مناهج مختلفة مع النص القطعي الثبوت القطعي الدلالة تتراوح بين المنهج اللغوي والتاريخي، لكنهم متفقون على تأويله تأويلاً ينتهي إلى اعتماد نسبية الحقيقة متأثرين بما انتهت إليه الحضارة الغربية، والآن نعود إلى التساؤل عن جذر المشكلة، وهو: هل يجب أن تتغير الأحكام كل ما تغيّر الواقع الاقتصادي والاجتماعي والتكنولوجي في المجتمع؟ وهل الحضارة الغربية مصيبة في إقرارها نسبية الحقيقة؟ وكيف يمكن أن يوفق الإسلام بين نصوص ثابتة وواقع متغير؟

كيف يمكن أن نوفّق بين نصوص ثابتة ووقائع متغيّرة؟

يتساءل كثير من الكُتاب والمفكرين المعاصرين الذين يتعاملون مع القضايا الإسلامية عن كيفية التوفيق بين نصوص ثابتة (القرآن والسنة) وواقع متغيّر، وهم من أجل هذه الإشكالية، يقولون: لابد لنا من إصدار أحكام جديدة تتفق مع الواقع الجديد، فالأحكام التي كانت صالحة في زمن الجمل والخيمة والزراعة غير صالحة في زمن الطائرة والصاروخ والصناعة، ويتعلّلون بأنّ تلك الأحكام كانت نتاج واقع اجتماعي واقتصادي وسياسي وثقافي معيّن، لذلك ومع تغيّر هذا الواقع يجب أن يتغيّر الحكم، فهل هذه المشكلة حقاً مشكلة جديدة؟ وهل يجوز أن نُصدّر أحكاماً مجرّدة من أية ضوابط من أجل حل هذه المشكلة؟

المشكلة ليست جديدة بل قديمة قِدَم النص القرآني، ونحن من أجل تسهيل مناقشتها يمكن أن نُجزّئها إلى قسمين:

مُحَرَّمَة– النصوص المتعلّقة بالعقيدة وبالأُسرة وبالحدود إلخ...



صفر– النصوص المتعلّقة بالقضايا الاقتصادية والزراعية والتجارية إلخ...

أما بالنسبة للنصوص المتعلّقة بالعقيدة وبالأسرة وبالحدود فأحكامها ثابتة، وقد جاء ثبات أحكامها من ارتباطها بالجانب الثابت من كيان الإنسان الذي أطللق عليه القرآن مصطلح "الفِطرة" فقال تعالى: ﴿**فِطرة الله التي فَطر النَّاس عليها لا تَبديل لخَلْق الله**﴾ (الروم، شوال ربيع أول)، ومن مظاهرة الفِطرة الثابتة على مدار التاريخ: التعبُّد، حب المال، حب التملك، التجاذب بين الذكر والأنثى، إلخ...، لذلك وُجِدت نصوص عالجت هذه الجوانب الفِطرية.

ففي مجال التعبُّد بيّنت النصوص صفات الله الذي يجب أن يتّجه المسلم إليه بالعبادة، وبيّنت أنواع العبادة من صلاة وصيام وزكاة وحج، ووضّحت كيفيّتها وأوقاتها، وبيّنت أجر المتعبِّد وعُقوبة غير المتعبِّد، وهي أحكام ثابتة لأن فطرة التعبد والتعظيم والتقديس ثابتة في كيان الإنسان ، فلا إنسان دون تعبد وتعظيم وتقديس .

وفي مجال التملّك والمال، فقد أباحت النصوص التملّك وحلّلت بعض طُرُق الكسب وحرّمت بعضها الآخر، قال تعالى: ﴿**وأَحَلَّ اللهُ البَيْعَ وحَرَّمَ الرِّبا**﴾ (البقرة، جمادى أول رجب صفر)، ووضّحت أوجه انفاق المال فحرّمت الإسراف والتبذير، ووضعت حدّ السرقة لمن يدفعه الطمع إلى التعدّي على مال غيره، ووضعت الضوابط المتعدّدة لهذا الحدّ. وهذا الحد ثابت لأن الطمع في التملك بغير الوسائل الشرعية ثابت في الكيان الإنساني.

وفي مجال التجاذُب بين الذكر والأُنثى، دعت النصوص إلى الزواج وتكوين الأسرة، واعتبرت الزواج هو الطريق المشروع للعلاقة بين الاثنين وحرّمت ما عدا ذلك، لذلك بيّنت نصوص كثيرة الحقوق والواجبات لكل من الزوجين والأولاد، وبيّنت أحكام الطلاق والميراث، ووضّحت عقوبة الزِّنا والقَذْف، وجعلتها ثابتة لأن شهوة التجاذب بين الذكر والأنثى ثابتة في الكيان الإنساني ، فلا إنسان دون شهوة جنسية.

إن كل الأحكام السابقة جاءت ثابتة لأنها تستند إلى شئ ثابت في الكيان الإنساني، ولم يأت ثباتها نتيجة قصور في التشريع،

أو تعنّت من الشريعة بقصد التحكم في الناس وإذلالهم، إنما جاء الثبات من ارتباطها بشيء ثابت في الكيان الإنساني وهي الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

أما بالنسبة للأحكام الأخرى المرتبطة بالأمور المتغيرة في المجتمع وحياة الناس مثل الأمور الاقتصادية، والسياسية، كأنواع الشركات، وصور تحقيق الشورى إلخ...، فقد حكمها بشكل عام علم أصول الفقه الذي جاء استجابة لآيات متعدّدة في القرآن الكريم تُبيّن للمسلمين طبيعة القرآن الكريم وصفاته، فقد جاء في تلك الآيات أنه قرآن عربي قال تعالى: ﴿**إنّا أنزلناه قُرآناً عربيّاً لعلّكم تعقلون**﴾ (يوسف،صفر)، وجاء فيها أنّ فيه نَسْخاً قال تعالى: ﴿**ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أو نُنْسِها نأتي بخيرٍ منها أو مِثْلِها إنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ**﴾ (البقرة،جمادى ثان شوال محرم)، وأنّ فيه مُحْكَماً ومُتشابِهاً قال تعالى: ﴿**هو الذي أنزلَ عليكَ الكِتابَ مِنه آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتابِ وأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ**﴾ (آل عمران،رجب)، وأنّ فيه المجْمَل والمفَصَّل قال تعالى: ﴿**الر . كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمّ فُصِّلَتْ مِن لَدُنْ حَكيمٍ خَبيرٍ**﴾ (هود،محرم) إلخ...

كانت تلك الآيات مِحْور علوم متعدّدة: المحْكم والمتشابه، الناسخ والمنسوخ، المجْمل والمفصّل إلخ...، وقد تكوّن علم أُصول الفقه من العلوم السابقة بالإضافة إلى قواعد أخرى مثل: الاستحسان، والمصلحة المرسلة، وسدّ الذرائع، والاستصحاب إلخ...، وقد مرّ علم أصول الفقه الذي مرّ بمرحلتين مهمّتين هما:

الأولى: إقراره بتعليل الأحكام في وجه الاتّجاه الظاهري الذي يرفض مثل هذا الإقرار بحُجّة أنّ الله لا يُسأل عما يفعل، وأنه لا حكمة ولا عِلّة وراء أي أمر من الأوامر، وإنّ البحث عن الحكمة والعلّة تنطّع في الدين وبُعد عن الصواب وافتراء على الله، ولكن هذه المدرسة في الفقه والتي مثّلها داود الظاهري في المشرق وابن حَزْم في المغرب انحسرت لصالح المدرسة الثانية التي وضّحت أنّ لله بيّن لنا الحكمة من بعض الأعمال حيث قال تعالى: ﴿**يا أيُّها الذين آمنوا كُتِبَ عليكُم الصِّيامُ كما كُتِبَ على الذينَ مِن قَبْلِكُم لعلّكُم تتّقونَ**﴾ (البقرة، ١٨٣)، وكان إبن القَيِّم الجَوْزِيَّة من العلماء الذين قبلوا تعليل الأحكام والبحث عن الحكمة من ورائها، وأقر بالعجر عن إحصاء الآيات والأحاديث التي علّلت الأحكام

لكثرتها، وقد سمح لنفسه أن يذهب في البحث عن الحكمة شَوْطاً بعيداً فتساءل عن الحِكمة في أداء صلاة الفجر ركعتين في حين أنّ صلاة الظّهر أربع ركعات إلخ...

الثانية : أخده بمقاصد الشريعة واعتباره أنّ الله أرسل الأنبياء وأنزل الشرائع لتحقيق مصالح العباد، وقد جاء هذا التطوّر على يد أبي إسحاق الشَّاطِبي تتويجاً للمرحلة السابقة، واعتبر الشَّاطِبي أنّ استقراء آيات الشريعة تُبيّن لنا أنّ القصد من إنزال الأديان السماوية هو تحقيق خمسة أمور: حفظ الدِّين، حِفظ النفس، حفظ النّسل، حفظ العقل، حفظ المال، واعتبرها من الضروريّات التي لا تستقيم حياة الناس بدونها، واعتبر أنّ هناك أموراً حاجية تأتي بعد الضروريّات في المرتبة لترفع الحَرَج عن الناس وتُيسّر سُبُل العيش كالرُّخَص في العبادات، واعتبر كذلك أنّ هناك أموراً تحسينيّة تأتي بعد الحاجية ترجع إلى مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، فلما نَدَب إلى الإنفاق ندب أن يكون الإنفاق من طيّب الكسب. ودعا الشَّاطِبي ضرورة تسلّح المجتهد بعلمين: الأول: العلم باللغة

العربية، والثاني: العلم بمقاصِد الشريعة، كي يستطيع أن يربط بين الجُزْئي والكُلِّي فيما يُسْتَفْتى فيه.

وبعد هذا التوضيح نستطيع أن نقول لقد كانت العلاقة بين النص الثابت والواقع المتغيّر محلولة فيما سبق من تاريخ الاجتهاد الإسلامي، وإذا ادّعى بعض الباحثين الآن أنّ هناك مشكلة بين النص الثابت والواقع المتغيّر دون دخول في النوايا أو الانتماءات الأيديولوجية فإننا نقول عليهم أن يُثبتوا أحد أمرين أو كليهما:

الأول: أنه ليس هناك فِطرة، وليس هناك جانب ثابت في كيان الإنسان، بل داخل الإنسان في تغيُّر وتحوُّل مُستمرّين كالمحيط الخارجي.

الثاني: أن يُثبتوا عدم ملاءمة علم أُصول الفقه للاجتهاد في وقتنا الحاضر، وعجزه عن التوفيق بين النص الثابت والواقع المتغيّر. وإلى أن توجد مثل هذه الدراسات التي تسدّ هذه الثغرة بشكل علمي وموضوعي فإنه يجب الاستمرار في اعتماد علم أُصول الفقه، مع الانتباه إلى وجود فُرصة جيّدة لتنمية وبالذات في مجال المقاصِد

بحيث تتّسع قُدرة المجتهدين على المواءمة بين النص الثابت والواقع المتغيّر.

في النهاية نقول: إن الإسلام قد حل مشكلة النصوص الثابتة والواقع المتغير، بأن راعى الثابت والمتغيّر حياته، فهناك جوانب ثابتة في كيان الإنسان من مثل فطرة التدين وفطرة الشهوة الجنسية وفطرة حب التملك إلخ... فأنزل نصوصاً تناسبها وأحكاماً ثابتة، فكانت العقيدة التي تعالج فطرة التدين، وكانت أحكام الزواج والطلاق والأسرة التي تعالج فطرة الشهوة الجنسية، وكانت أحكام حد السرقة التي تعالج فطرة حب التملك إلخ...

وهناك جوانب متغيرة في حياة الإنسان من مثل الزراعة والصناعة والتجارة والسكن واللباس والمواصلات إلخ... فلم يلزم بزراعة معينة، ولا تجارة محددة، ولا سكن خاص إلخ... بل ترك هذه الأمور لظروف حياتنا وتطور أوضاعنا، وأعطانا النصوص القليلة التي نحتاجها في تعاملنا مع هذه الوقائع المتغيرة.



تعرضنا فيما سبق لأهم الأخطار التي تهدد الصحوة والأمة، وحددناها بثلاثة، هي: القطرية، واسرائيل، والعولمة، وفصّلنا الحديث عن كل خطر على حدة، ووجدنا أن الأمركة ذات خطر ثقافي وتربوي واجتماعي وسلوكي إلخ... وأخطر ما في الأمركة نسبية الحقيقة التي تقوم عليها، وفصلنا الحديث عن نسبية الحقيقة عند كل من طه حسين، وحسين أحمد أمين، ونصر حامد أبو زيد، ومحمد شحرور، وانتهينا إلى الحديث عن كيفية توفيق الإسلام بين النص الثابت والواقع المتغير.

الخاتمة

طوّفنا فيما سبق في أوضاع أمتنا منذ مطلع القرن العشرين، وبيّنا أن ايديولوجيا القومية العربية هي التي قادت الأمة مستهدفة النهضة، لكنها فشلت في ذلك فشلاً ذريعاً، وبيّنا أن الفشل يعود إلى مضمون ايديولوجيا القومية التي نقلت النظرية الألمانية، والتي تقول أن الأمة تقوم على عاملي اللغة والتاريخ، وأوضحنا أن أمتنا تقوم على عاملين رئيسيين هما: القرآن الكريم، والسنة المشرفة، ثم بينا أن الصحوة الإسلامية جاءت ثمرة فشل ايديولوجيا القومية العربية في تغريب المنطقة مستندة على الوحدة الثقافية في الأمة، ووضّحنا في الفصل الأخير أهم الأخطار المحدقة بالمنطقة، وهي أخطار القطرية واسرائيل والعولمة، لكن هذه الأخطار تزداد الآن بنسبة كبيرة بعد أحداث 11 سبتمبر/ايلول 2001م والتي وقعت في نيويورك وواشنطن، وأبرزها ارتفاع عقيرة الداعين إلى التغريب والحداثة والعلمانية، ولكننا نوجّه أنظارهم إلى التجربة الماضية التي استهدفت فيها ايديولوجيا القومية العربية الحداثة والعلمانية والحرية والوحدة والاستقلال الوطني والثروة والاقتصاد المزدهر إلخ...، وأن

عليهم الاستفادة منها، وأبرز الدروس المستفادة هو خطأ النقل عن الحضارة الغربية، فتجارب الحضارات لا تنقل، ولابد من الانطلاق من واقع الأمة، وهذا الواقع مبني حول الإسلام، ومتداخل معه في كل المجالات الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية إلخ... لذلك لابد من الانتباه لهذا الواقع، ومراعاته، بل الانطلاق منه في أي بناء للديمقراطية والعقلانية والوحدة في المرحلة القادمة.

لقد كلفتنا التجربة السابقة للنهوض كثيراً من الخسائر في مختلف المجالات البشرية والاقتصادية والنفسية والعلمية إلخ...، وعلينا أن نضع تلك التجربة تحت المجهر قبل الانتقال إلى غيرها حتى لا نكرر أخطاءنا، فبعض المغرضين يريد أن يصل بنا إلى اليأس والإقلاع نهائياً عن قيم النهوض من أمثال الوحدة والاستقلال الاقتصادي والدور الحضاري المتميّز إلخ...، واعتبار هذه القيم أوهاماً وهلوسات، لكن الأمر غير ذلك، فهي حقائق يمكن أن نصل إليها، وإن خطأ ايديولوجيا القومية العربية أنها رسمت أهدافاً صحيحة لكنها استخدمت وسائل غير صحيحة في تحقيق تلك الأهداف، وأبرز سلوك غير صحيح أنها تنكرت للدين

الإسلامي الذي شكّل وحدة الأمة، ونسج دورها الحضاري المتميّز، وأقام اقتصادها، ورسم صورتها الاجتماعية إلخ...

إن النهضة أمر ممكن، وعلى الأرجح إنها آتية بإذن الله، لكن علينا أن نعي واقعنا: عناصر تشكيله، وأمراضه، وأوجه قصوره إلخ...، وعلينا أن نعي الإسلام: مبادئه، ومقاصده، وتفصيلات أحكامه إلخ...، وعلينا أن نعي الحضارة الغربية: علومها، وأهدافها، وسياستها إلخ... علينا أن نعي كل ما سبق، وننطلق من كل تلك العناصر مجتمعة، عندئذ نكون قد وضعنا أمتنا على طريق استعادة العافية، ووضعناها على مسار النهضة بشكل صحيح وسليم.

المراجع

حسب ورودها في الكتاب

– زين نور الدين زين، نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العامة العربية التركية، بيروت، الطبعة الثانية، 1979م، دار النهار للنشر .

– "من حملة مشاعل التقدم العربي: عصمت سيف الدولة" بحوث ومناقشات الدورة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية لبحوث التنمية والمستقبل، بيروت، الطبعة الأولى، 2001م، مركز دراسات الوحدة العربية.

– مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق، 1986م، دار الفكر.

– محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1988م، مركز دراسات الوحدة العربية.

– محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لتنظيم المعرفة في الثقافة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، 1987م، مركز دراسات الوحدة العربية.

- جورج صليبا، الفكر العلمي العربي: نشأته وتطوره، بيروت، الطبعة الأولى، 1998م، مركز الدراسات المسيحية الإسلامية، جامعة البلمند.
- عبد الرحمن الكواكبي، الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي، دراسة وتحقيق محمد عمارة، بيروت، 1975م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- ساطع الحصري، ما هي القومية؟ بيروت، الطبعة الأولى، 1959م، دار العلم للملايين.
- ساطع الحصري، ثلاثون عاماً على الرحيل، بحوث مناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية ومعهد البحوث والدراسات العربية، بيروت، الطبعة الأولى، نوفمبر، 1999م، مركز دراسات الوحدة العربية.
- جمال الدين الآلوسي، ساطع الحصري: رائد القومية العربية، بغداد، الطبعة الأولى، 1986م، دار الشؤون الثقافية العامة.
- ساطع الحصري، آراء وأحاديث في الوطنية والقومية، القاهرة، 1951م، مكتبة الخانجي.



- ساطع الحصري، محاضرات في نشوء الفكرة القومية، بيروت، الطبعة الخامسة، 1964م، دار العلم للملايين.
- عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1991م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- موسوعة العلوم السياسية، إصدار جامعة الكويت، الكويت، الطبعة الأولى، 1994/1993م.
- مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، الجامع الصحيح، بيروت، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر.
- محمد بن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، القاهرة، المطبعة المصرية.
- غازي التوبة، النكسة في بعدها الحضاري، بيروت، الطبعة الأولى، 1973م، دار السلام.
- ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق محمد حامد الفقي رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية، بيروت، دون تاريخ، دار المعرفة.
- غازي التوبة، أبو الأعلى المودودي: فكره ومنهجه في التغيير، عمّان، الطبعة الأولى، 1996م، دار البشير ومؤسسة الرسالة.

- غـازي التوبـة، الجماعـة في الإسـلام: المشـروعية والإطـار، الكويـت، الطبعة الأولى، 1995، دار البحوث الإسلامية للنشر.
- طه حسين، في الشعر الجاهلي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1926م، دار الكتب المصرية.
- نصر حامد أبو زيد، نقد الخطاب الديني، القاهرة، الطبعة الثانية، 1994م، دار سينا للنشر.
- نصر حامد أبو زيد، دوائر الخوف: قراءة في خطاب المرأة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1999م، المركز الثقافي العربي.
- محمد شحرور، الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة، دمشق، الطبعة الخامسة، 1992م، دار الأهالي.

الفهرس





غازي التوبة

إشكالية النهضة
بين الفكر القومي العربي والصحوة الإسلامية

من إصدارات المؤلف

- الفكر الإسلامي المعاصر (دراسة وتقويم) ١٩٦٩م
- النكسة في بعدها الحضاري ١٩٧٣م
- في مجال العقيدة (نقد وعرض) ١٩٨٦م
- جذور أزمة المسلم المعاصر (الجانب النفسي) ١٩٩٣م
- الجماعة في الاسلام (المشروعية والإطار) ١٩٩٥م
- التغيير في العالم الإسلامي : أزمة موضوعية أم ذاتية؟ ١٩٩٦م
- أبوالأعلى المودودي فكره ومنهجه في التغيير ١٩٩٦م.
- الأمة الإسلامية بين القرآن والتاريخ ١٩٩٩م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - وطي المصيطبة - شارع حبيب أبي شهلا بناء المسكن
هاتف : ٨١٥١١٢-٣١٩٠٣٩ فاكس:٨١٨٦١٥(٩٦١١)
ص.ب ١١٧٤٦٠
e-mail:resalah@resalah.com
http://www.resalah.com